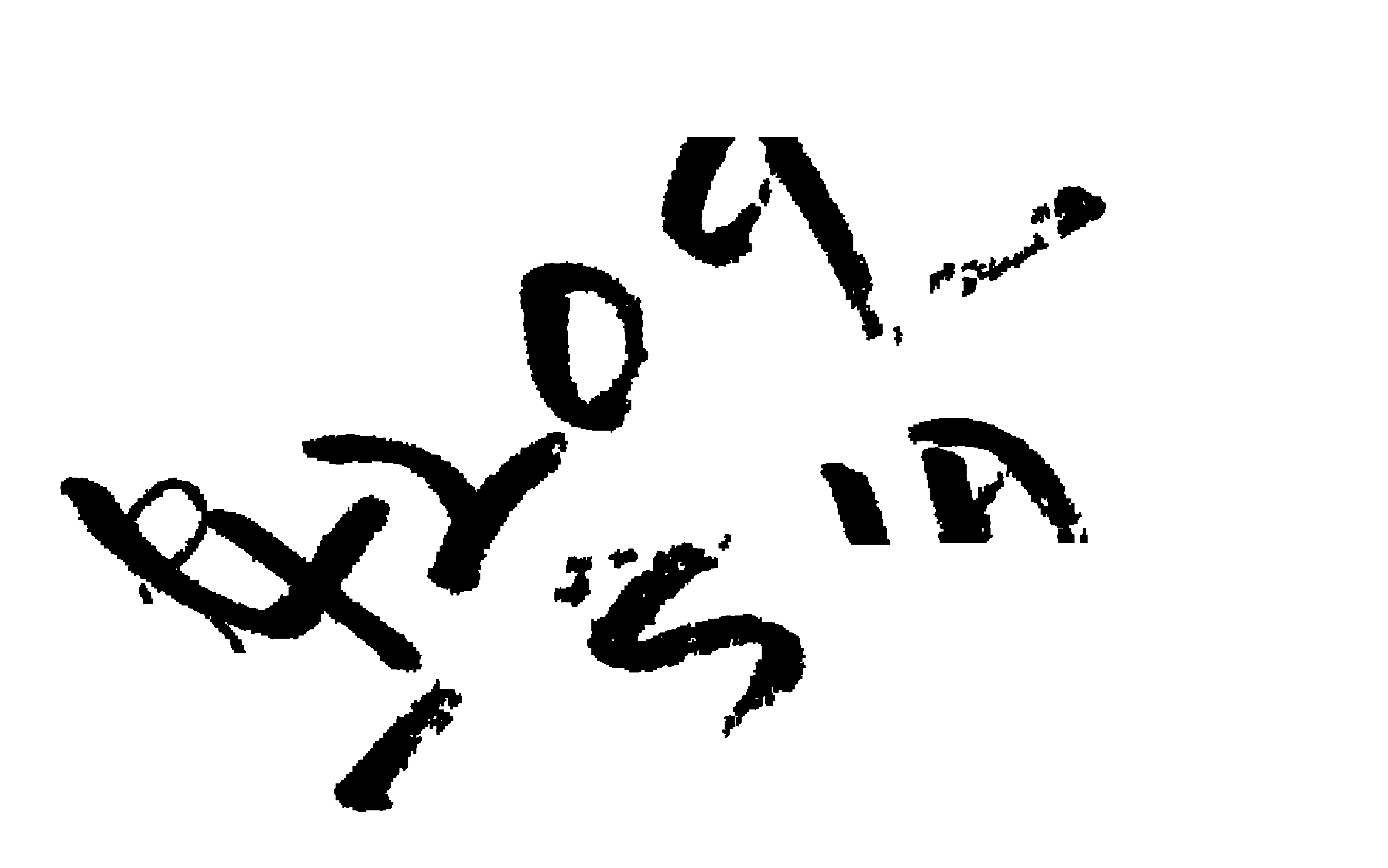


دراسات فى الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

آفاق إسلامية

للدكتور عبد الحميد سند الجندى

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

« ٧٧ »
السنة السابعة
١٥ من شعبان ١٣٨٧ هـ
١٧ من نوفمبر ١٩٦٧ م



بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ »

« آل عمران الآية ٨٥



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله نبى المسلمين ، الذى اجتباه ربه ليخرج الناس من الظلمات الى النور .

وبعد : فقد شغلت وظيفة أستاذ للأدب العربى بجامعة الجزائر عامين ونيفا . وقد ألفيت أشقاءنا الجزائريين منهومين بالعلم والثقافة العربية ، وبخاصة ما يتصل بدين الاسلام الحنيف ..

ذلك أن الاستعمار الغاشم فرض سلطانه اللئيم على ذلك البلد الاسلامى قرابة قرن وثلث قرن من الزمان . وقد حاول المستعمرون خلال هذه المدة الطويلة أن يطمروا اللغة العربية ، وأن يعفوا على الاسلام ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . بيد أنهم لم يستطيعوا أن يستلوا الايمان العميق من نفوس الجزائريين .

ولم يكد الاستعمار ينقشع عن تلك البلاد بعد جهاد بطولى مرير ظل متصلا سبع سنين دأبا رأينا هؤلاء المجاهدين الأبطال —

بعد أن تحررت بلادهم من رجس الاستعمار ـ يقبلون فى نهم شديد على تحصيل المعرفة والتزود بالثقافة الاسلامية بعد أن كان الاستعمار يحول بينهم وبين ذلك .

لهذا رأيت ــ بقدر جهدى ــ أن أمدهم بهذا اللون من الثقافة الدينية . فكنت أنشر أبحاثا تتصل بالاسلام فى مجلتى « المعرفة » و « القبس » اللتين أصدرتهما وزارة الأوقاف الجزائرية على التوالى . وكنت أقوم ــ الى جانب ذلك ــ باذاعة أحاديث اسلامية فى التليفزيون والاذاعة هناك .. وكان لذلك صدى طيب فى نفوس اخواننا الجزائريين .

وكنت أعتمد ــ بطبيعة الحال ــ فى هذه الابحاث على كتاب الله الحكيم قبل كل شىء ، وعلى أمهات الكتب الكبرى ، وعلى مادبجته يراع الأساتذة الأفاضل الذين سبقونى فى هذا المضمار ثم على ما كتبه الباحثون الغربيون الذين نزعوا عن أبصارهم غشاوة التعصب المقيت .

وقد رأيت أن أجمع هذه الأبحاث فى كتيب يلم شتاتها وتفضل المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ــ مشكورا ــ بنشرها .

وأرجو أن أكون قد أديت بعض مايجب على نحو دين محمد خاتم الأنبياء والمرسلين . والله أسأل أن يوفقنا لخدمة الدين والوطن والعلم جميعا . وأن يهيىء لنا من أمرنا رشدا .

التصور الديني عند العرب قبل الاسلام

ان المـــراد بالشرك هو اشراك غير الله مع الله فى العبـادة والاتجاه والرجاء والخوف ، وكان هذا عقيدة الشرك العربية قبل الاســـلام .

والواضح من النصوص القرآنية أن مشركى العرب كانوا يعترفون بوجود الله ويعتقدون بألوهيته العليا وقدرته العظمى ، سواء فى اشراكهم شركاء واعتبارهم أندادا له ، أو شركاء وسطاء وشفعاء يتقربون بهم زلفى اليه .

وهذا الاعتراف بالله الى جانب شركائهم يعتبر خطوة كبرى فى تطور الفكرة الدينية عندهم . ويزداد ذلك وضوحا اذا لاحظنا أن فى القرآن آيات كثيرة جدا لا يتسع المقام لحصرها فى صدد اعتراف العرب بوجود الله وبقدرته العظمى . وقد ساق لنا ذلك فى صور ومناسبات عديدة ومتنوعة نورد منها مايلى :

يقول تعالى : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط

بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » ، ويقول : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؛ ومن يدبر الأمر فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون» ويقول : « وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون . ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » . ويقول : « قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله ، قل أفلا تتقون » ويقول : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فأنى يؤفكون .. » ، ويقول : « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون » ، ويقول : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » ، ويقول : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » .. الى غير ذلك من الايات الكثيرة التى تدل فى صراحة على أن العرب كانوا يعترفون بالله قبل الاسلام . وهم حينما كانوا يشاقون الرسول عليه السلام انما كانوا ينكرون نبوته ، مع اعترافهم بالله وبألوهيته العظمى .

ونحن حين نتتبع الايات التى تحكى اعترافهم بالله نستخلص منها الأمور الاتية :

أولا : أن أهل بيئة النبى صلى الله عليه وسلم أو فريقا منهم كانوا يعترفون بوجود الله كاله أعظم ، خالق السموات والارض وما فيهما ، وأنه مدبر الكون وربه ، وأنه بيده ملكوت كل شىء ، وأنه هو الذى يسيطر على قوى الطبيعة ويصرفها ، من شمس وقمر وكواكب وبحار ورياح ، ويسخرها لصالح خلقه ، وأنه هو الذى يحيى ويميت ويعطى ويمنع .

ثانيا : أنهم أو فريقا منهم كانوا يعتبرون الله الملجأ الأعلى فى عظائم الأمور وأنه ــ حين تحدق بهم الأخطار والأهوال ــ لا يكشف الضر ولا يدفع الشر غيره .

وكانوا يجأرون اليه حينما تدهمهم الخطوب والكوارث ، على اعتبار أنه هو القادر وحده على دفع النوائب والأخطار ، لا شركاؤهم ولا شفعاؤهم ولا آلهتهم .

ثالثا : أنهم أو فريقا منهم كانوا يعتقدون أن ما هم عليه من عقائد وطقوس ، وتحليل وتحريم انما هو متصل بأوامر الله ومستمد من الهامه ووحيه ، وأنه راض عنهم وعما اتخذوه من شركاء وشفعاء ، ويقولون انه لو لم يكن راضيا عن ذلك لما فعلوه .

رابعا : أنهم أو فريقا منهم كانوا يعتقدون أن الله هو الذى يرسل الأنبياء ، ويؤيدهم بآياته ، ويوحى اليهم بكتبه التى فيها أوامره ونواهيه .

ويتضح لنا أن ما جاء في الفقــرة الثالثة كان كالحلقة المتوسطة بين تفكير ديني قديم وتفكير ديني جديد ، وأنه يمكن أن يفسر لنا اعترافهم بالله مع اتخاذهم شركاء وشفعاء واشراكهم معه بالعبادة والدعاء والاتجاه .

والمفروض أن العرب في أطوارهم الأولى كانــوا وثنيين . يعبدون المادة والقوى الطبيعية ، وما انبثق في أذهانهم من عقيدة وجود الأرواح الخفية الخيرة والشريرة ، وأنهم لم يكونوا قــد تصوروا وجود الاله الأعظم متصفا بالصفات الواجبة له أو ما يقرب منها ثم أخذوا يستوحون صفاته في أذهانهم شيئا فشيئا حتى دخلوا في طورهم الأخير الذي كانوا عليه عند نزول القرآن . وهــو التسليم بوجود اله أعظم له ملك السموات والأرض ، وبيــده تدبير الأكوان وتسخير القوى الطبيعية ، وهو الملجأ الأعلى للناس في كل ما يصيبهم من بلاء ، والقادر وحــده على دفعه عنهــم ، والمصدر الأكبر لكل ما يرجونه من خير . غير أن عقولهم لم تكن لتستطيع أن تصل الى تصور اله واحــد غير مادي وغير مدرك بالحواس ، مجرد عن الرموز والشفعاء والشركاء والوســطاء ، فكانوا — مع اعترافهم بالله — لا يرون لهم غنى عن معبــوداتهم الأولى التي كانوا أكثر اتصالا بها واتجاها اليها في الاستشفاع والاستعداء على قوى الشر والأذى .

وكانوا يعتقدون أنهم على حق في ذلك ، لأنهم كانوا يذهبون الى أن الله المتصف بصفات القدرة والعظمة والجبروت والخلق

والبسط والقبض ما كان يبقيهم على هذا الاتجاه نحو معبوداتهم المادية والروحية والطبيعية لو لم يكن راضيا عن ذلك . وهذا ــ من غير شك ــ صدى لما كان راسخا فى نفوسهم من عقائد موروثة .

ومن الحق علينا أن نقول ان العرب لم يكونوا فى هذا الأمر بدعا . فقد مر بهذا الطور غيرهم من الأمم الأخرى فى مرحلة من مراحل حياتهم الاعتقادية .

وهكذا نرى من خلال هذه الخطوة التطورية أنهم قد ارتقوا فى تفكيرهم الدينى من عبادة المعبودات المادية والروحية والطبيعية الى فهم معنى الله وتصوره والاعتراف به . غير أن هذه الخطوة لم تبلغ مداها الصحيح ، لأنهم لم يكونوا قد وصلوا الى اساغة الاكتفاء بالله وحده ؛ فكانوا كما عبرت عنهم آية يوسف « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » .

ونستطيع أن نقرر فى غير تحفظ من نصوص الايات القرآنية أن العرب لم يظلوا فى تفكيرهم الدينى فى نطاق المادية والحجرية الجافية كما يدعى بعض المستشرقين .

ويبدو لنا أن فكرة الله وضحت فى أذهانهم قبل البعثة بأمد غير قصير ، حيث اشتد اتصالهم بغيرهم من الأمم وكثرت رحلاتهم اليهم ، وحيث أخذت معارفهم تنمو وتتسع . وفى بعض الايات دلالات على بعد عهد ذلك نوعا عن حقبة البعثة الشريفة،

اذ تحكى قولهم انهم وجدوا آباءهم على أمة ، وهم على آثارهم مهتدون ، كما تحكى تواصيهم بعدم اتباع النبى صلى الله عليه وسلم لأنه يصدهم عما كانوا عليه .

ويتبع ذلك ــ بطبيعة الحال ــ عدم حداثة لفظ الجلالة « الله » فى اللسان العربى . وقد قال بعض المفسرين ــ وهو أرجح الأقوال ــ ان اللفظ مشتق من « أله » بمعنى عبد ، أو « وله » بمعنى حار ، أو « لاه » بمعنى سكن الى الشيء من باب باع . وجوز سيبويه أن يكون لفظ « لاه » أصل اسم « الله » تعالى ، قال الشاعر :

كحلفة من أبى رباح يسمعها « لاهه » الكبار

أى « الهه » أدخلت عليه الألف واللام فجرى مجرى الاسم العلم كالعباس والحسن . ويرى فريق آخر من المفسرين واللغويين أن لفظ الجلالة معدول من لفظ « اللات » أحد أصنامهم ، ثم جعلوه مذكرا حينما انبثق فى أذهانهم معنى وجود الله كاله أعظم .

ويبدو لنا أن « اللات » كانت أعز معبوداتهم ، يدلنا على ذلك أن القرآن الكريم قدم ذكرها على « العزى » و « مناة » كما أن الروايات تقدمها فى الذكر ، وخاصة فى الحلف . ولعل فى هذا ما يمكن أن يدل على أن « اللات » كانت صاحبة الاعتبار الأول أو المعبودة الكبرى عند العرب ، ان لم يكن فى عهد النبى ففى الزمن الذى قبله بمدة ما .

واذا صح هذا كان فيه رجحان الصلة الاشتقاقية أو العدلية بين « اللات » ولفظ الجلالة .

على أنه يجب أن نشير الى أمر ذى بال بصدد وضوح فكرة الله فى أذهان العرب ، ذلك أنهم ـ على ما يظهر لنا ـ كانوا يتخيلون الله شيئا يمكن أن يروه ماثلا أمامهم ، يدلنا على ذلك قول الله تعالى : « أو تأتى بالله والملائكة قبيلا » ، وقوله جل شأنه « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » .

فهذه الآيات -- وان كانت تحكى عنهم تعجيزا وتحديا — فانها تدل على أنهم كانوا يتصورون الله شيئا يمكن أن يرى .

ولسنا نشك فى أنه كان للكتابيين أثر كبير فى تلك الخطوة التطورية الدينية عند العرب .. فقد كانت النصرانية منتشرة فى بقاع كثيرة من الجزيرة العربية ، كما كان لليهودية مراكز قوية فى يثرب وخيبر وبعض جهات من اليمن . ومن الطبيعى أن يتأثر العرب بأهل الكتاب أولئك ، وأن يأخذوا عنهم فكرة وجود الاله الأعظم ، ولكنها لم تستطع أن تتغلب على ما كان راسخا فيهم من عقائد موروثة ، فآمنوا من جهة بوجود الله ، واحتفظوا من جهة أخرى بمعبوداتهم وعقائدهم وتقاليدهم .

ثم استمر التطور حسب تفاوت المدارك والبيئات الى أن أخذ يظهر فيهم من يسيغ فهم الله وحده وعبادته والتوجه اليه فهما

غيبيا مجردا ، ويستشعر ما فى عبادة معبوداتهم من سخف وضعة تفكير ، فيأنف من عبادتها وينبذها .. وهم طبقة الحنفاء الذين كانوا يتبعون ملة ابراهيم الحنيفية ، وفى القرآن الكريم آيات وردت عن أهل الكتاب تدل على ذلك .

ويظهر لنا من الايات القرآنية أن فكرة وجود الله والاعتقاد به على هذا الوجه كانت واسعة النطاق فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، بحيث يسوغ لنا أن نقول انها كانت تشمل البدو والحضر بوجه الاجمال . وعقيدة الشرك التى كانت دين العرب عامة دليل على ذلك ، فاشراك غير الله مع الله سواء كان اشراكا رئيسيا أو غير رئيسى يطوى فيه الاعتراف بوجود الله . وهذا كان ينتظم العرب عامة فى عصر النبى ، باستثناء الاقلية الكتابية منهم .

وقد اعتاد العرب فيما اعتادوه من مظاهر اعترافهم بالله استعمال كلمة « الله » فى أيمانهم ، كما أنهم اعتادوا أن يستعملوا كلمة « اللهم » فى دعائهم ، ومن ذلك قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » ، وقوله : « واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » .

وقد ذكرت الروايات أنهم كانوا يستعملونها فى عقودهم وكتاباتهم ، وأن تسمية « عبد الله » كانت كثيرة الشيوع عندهم .

وتحكى بعض الايات أن العرب كانوا يقسمون قبل البعثة بأغلظ الايمان أنهم لو جاءهم نذير من قبل الله ليكونن أهدى من

احدى الأمم « فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا » ، وأنهم لو جاءهم كتاب كما جاء غيرهم من الأمم السابقة لاتبعوه وكانوا عبادا مخلصين لله « وان كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين » . ولا شك أن العرب قد قصدوا بإحدى الأمم اليهود والنصارى ، لأنهم هم الذين كان لديهم كتب من الله ، والى ذلك يشير الله تعالى بقوله : « أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » . وفى ذلك دلالة واضحة على استمرار التطور فى التفكير الدينى عند العرب واتجاههم نحو الله ، وعلى ما كان لديهم من المام بأحوال اليهود والنصارى وأثر هاتين الديانتين السماويتين فى هذا التطور .

ويفهم من هذه الايات أن فريقا من الذين كانوا يعترفون بوجود الله وبأنه الملجأ الأعلى والاله الأعظم أخذوا يرون أنفسهم فى عماية عن الطريق السوى المستقيم حين يتخذون لله شركاء فى الدعاء والخضوع والاتجاه ، فصاروا يتمنون أن يبعث فيهم نبى بالبيان الواضح والصراط القويم حتى يتبعوه ويهتدوا به .

ويفهم منها أيضا أن فريقا من العرب كانوا يسمعون أخبار الكتب السماوية التى عند اليهود والنصارى وأخبار الأنبياء وسائر الرسل ، وما فى هذه الكتب من شرائع وبينات جعلت أتباعها يرون أنفسهم أنهم على هدى من الله ، وعلى علم بصفاته وبحلاله وحرامه . وكانوا يرون من اليهود خاصة زهوا واستعلاء بسبب أن

بعض الرسل والأنبياء منهم ، ولاعتقـادهم أنهم الشعب الذى اختاره الله لرسالاته . فأثار هذا غيرة ذلك الفريق العربى وجعله يتمنى ويتطلع الى نبى يبعثه فى العرب ليهديهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وبخاصة وأنه يؤمن بوجود الله الذى يؤمن به اليهود النصارى والذى يرسل الأنبياء الى الأمم بالكتاب والبينات ، واذ ذاك يكون للعرب من الفخر والاعتزاز بنبوة عربية وكتـاب سماوى عربى مثل ما كان لليهود والنصارى والعرب ـ كمـا نعرف ـ أصحاب نعرة ولا يحبون أن يستأثر غيرهم بفضل دونهم.

ولا يبعد أن يكون بعض العرب قد سمعوا من الأحبـار والرهبان بشرى واقتراب بعثة نبى عربى ، فكان من المرتقب أن يكون العرب ـ اذا بعث فيهم النبى ـ أهدى من الأمم الأخرى . وفى القرآن الكريم ما يؤيد ذلك ، كقوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل » ولا يمكن أن يكون موضع ريب أن تشير آية قرآنية الى هذا وهى تتلى جهرة يسمعها اليهود والنصارى ما لم يكونوا يجدون فى كتبهم الدينية صفات هذا النبى الأمى بأسلوب ما ويبشرون بقرب ظهوره . ومن المحقق أن علم هذا لم يفت العرب أو لـم يعزب عن فريق منهم فى بيئة النبى صلى الله عليه وسـلم ، والله تعالى يقول : « واذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .

وقد يكون من الطبيعى بعد هذا أن يرد على الخواطر هذا السؤال : ما الذى دفع العرب الى معارضة الدعوة المحمدية بعد أن بلغ بهم التطور الدينى هذا المبلغ ، وبعد أن كانت نفوسهم تصبو الى أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ؟ وما سر هذا الموقف المتناقض ؟

وليس من العسير الاجابة عن هذا السؤال . فالمعروف أن موقف جمهرة العرب من الدعوة الاسلامية ، وبخاصة فى العهد المكى ، كان بتأثير زعماء مكة وكبرائها وسادتها وأغنيائها وذوى الرأى فيها .. هؤلاء الذين زلزلت الدعوة من مكانتهم وعلوهم واستكبارهم . والايات القرآنية تشير بوضوح الى أنه كان هناك عوامل عديدة غلبت زعماء مكة على أمرهم وأوقعتهم فى هذا التناقض العجيب ..

منها الحسد ، والاستكبار ، والترفع عن اتباع النبى بالذات ، واستخفافهم بشأنه ، وغيظهم من أن يختص هو بالرسالة الالهية من دونهم ، وهم يرون أنفسهم أعلا مقاما وأضخم ثروة وأعظم جاها وأسمع كلمة منه .. ويدلنا على ذلك قول الله تعالى : « فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا ، استكبارا فى الأرض ومكر السيىء ، ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله » ، وقوله : « ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون . وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، وقوله : «أأنزل عليه الذكر من بيننا .. »

ومنها الخشية من ضياع ما كان لهم ولبلدهم مكة من امتيازات عند العرب ، وما كان يعود عليهم من منافع من وراء هذه الامتيازات التى كانت تقوم على وجود الكعبة ومناسك الحج فى مكة ؛ وعلى ما لمنطقة البيت المحرم من الأمن المفروض. كما جاء ذلك حكاية صريحة عنهم فى قوله تعالى : « وقالوا ان تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا ، أو لم نسكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا » . فهذه الآية تدل على أن زعماء مكة قد تصوروا أن متابعة النبى ستؤدى الى القضاء على كل ما كان لهم ولبلدهم من الامتيازات والتقاليد . فضلا عما فى ذلك من فقد أسباب معاشهم ومظاهر عزتهم وحرماتهم . وبهذا كانوا يوغرون صدور سواد مكة ضد دعوة النبى صلى الله عليه وسلم .

ومنها عصبية التقاليد التى كانت متغلغلة فى أعماق نفوسهم ولم يكن من السهل انتزاعها ، اذ تتضاءل معها قوة المنطق ونصاعة البرهان ؛ وكانوا اذا أفحموا بالحجة قالوا : « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » و « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » .

ومنها الصورة التى تصوروها للنبى ولمظهر النبوة ، والتى تصور ناحية من تفكير العرب فى عصر النبى ، ثم ما رأوه من تناقض لها فى شخص النبى ومظهره وقدرته .. فقد تصوروا أن النبوة تضفى على النبى ما هو فوق الطبيعة البشرية ، مما يجعله

يصبح قادرا على خرق النواميس الكونية . وقد كان لما عرفوه من قصص الأمم والأنبياء آثر ما فى هذه الصورة من غير ريب . وهذه القصص لم تكن مجهولة في الأوساط العربية قبل البعثة . وفيها كثير من المعجزات المادية الخارقة التى زود الله بها أنبياءه ليؤدوا رسالات ربهم . كمعجزات موسى وعيسى وابراهيم وداود وسليمان وغيرهم من الرسل . فتصوروا محمدا على تلك الصورة التى ساعد على قيامها فى أذهانهم ما سمعوه وما عرفوه عن الأنبياء السابقين ، ثم رأوه يخبرهم أن الله قد أرسله لهداية الناس الى دين الحق ، ويتلو عليهم آيات الكتاب التى نزلت عليه بينما هو بشر مثلهم ، يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون . ويمشي فى الأسواق كما يمشون « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا » . ووجدوه يعتريه ما يعتريهم من أعراض ، ويحتاج الى ما يحتاجون اليه من شئون ، ويتمتع بما يتمتعون . ولم يروا فيه صفة خاصة ، ولا علامة بينة ولا قوة خارقة ، ولم يشاهدوا الملائكة التى تنزل عليه ، فدهشوا من هذا ، وطالبوه بالآيات والمعجزات كما فعل الأنبياء السابقون .. كأن ينزل الملائكة من السماء ، أو كتابا مكتوبا يلمسونه ويقرأونه ، أو يفجر الأنهار والينابيع ، أو يحيى آباءهم الأولين .. الى غير ذلك من المطالب التى حكتها الايات القرآنية ، من مثل قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من

نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أ وتسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » .

ومنها عقيدة البعث بعد الموت ، وكانت ركنا من أركان الدعوة الاسلامية ، وقد كان انكارهم لها شديدا عنيفا . وقد ذكر القرآن آيات كثيرة تدل على الانكار والتحدى والاعراض والسخرية التى كان العرب يقابلون بها انذار القرآن وتبشيره عن اليوم الاخر وبعث الناس بعد موتهم لمحاسبتهم عما فعلوه فى حياتهم الدنيا ، وتوفية كل نفس ما عملت من خير وشر ، ومجازاة المؤمنين بالجنة والمغفرة والرضوان ، والكافرين بالنار والخزى والخسران .

وتدل كثرة الايات التى تناولت اليوم الاخر والحساب والثواب والعقاب ـ بالاضافة الى ما ينطوى فيها من حكمة ربانية وحقيقة ايسانية ـ على أن مشكلة البعث والحساب لم تكن قائمة فى أذهان بعض الطبقات دون بعض ، وانما كانت مشكلة الجميع ، فلم يكونوا يتصورون أن الناس بعد أن يصبحوا ترابا يبعثون ثانية ليحاسبوا على ما كان منهم فى الحياة الدنيا من خير وشر وايمان وكفر .

والظاهر أن عدم وجود بيـان صريح ووصف واضـح عن البعث واليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب فى الديانتين اليهودية والنصرانية كان من أسباب تعقد المشكلة فى أذهان العرب ومقابلة الوعد والوعيد بالاعراض والسخرية والاستخفاف ، اذ لم يسبق لهم أن تهيأت نفوسهم لاساغة هذه الحقيقة الايمانية الغيبية ، كما كان الشأن فى اساغة فكرة الله المجـردة ، وفكرة الملائكة ، وبعثة الأنبياء بما معهم من الكتب والمعجزات .

مزية الاسلام الكبرى
(أنه تشريع صالح للبشر جميعا)

الاسلام ، ديننا الحنيف ، تشريع سماوى عام ، اعتمد على المنطق وعلى العقل ، فكان بذلك عبقريا لبقا . وقد جاء بعد ديانتين سماويتين تختلفان فى جوهرهما كل الاختلاف .

فالمعروف أن الطبيعة التى اتسمت بها الديانة اليهودية كانت الاشادة بمبدأ القوة والقسوة والأثرة والأخذ بأساليب ذلك والتفانى فيه . بينما جاءت الديانة المسيحية على عكس ذلك تماما ، فقد دعت الى المسالمة والرحمة والتسامح والسعى للآخرة والتغاضى عن الحقوق متى كان فى الحصول عليها قوة وشدة وخصام . وفى ذلك يقول المسيح : « قال صاحب التوراة : النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والجروح قصاص ، وأنا أقول : اذا لطمك أخوك على خدك فأدر له خدك الأيسر » .

والانصاف يدفعنا الى أن نقرر فى ثقة وقوة أن المسيحية بمبادئها الروحية الخالصة كانت من ألزم اللوازم للانسانية فى تلك المرحلة التى ظهرت فيها . فقد قامت الأخلاق اليهودية والفلسفة العبرية على أسس فى الأنانية ومن المصالح الشخصية ، ومن حب المادة والتهالك عليها بكافة الوسائل وشتى السبل .

ولو تعمقنا البحث فى أصول هذه الديانة المسيحية الهادئة المسالمة لوجدنا أنها كانت ثورة عنيفة خطيرة هزت الانسانية من أساسها . وعملت على تحطيم قوانينها التربوية والأخلاقية التى اصطلحت عليها أجيالا بعد أجيال . وتهادنت على العمل بها من أزمان غابرة سحيقة . فقد جاءت لتعالج المشكلة الانسانية من ناحيتها الطبيعية . فكانت كما قلنا ثورة على قوانينها الأخلاقية وما اصطنعته لنفسها من تقاليد وعادات كلها ترمى الى تحبيذ شريعة الغابة ، حيث يكون كل شىء للقوى و لاشىء للضعيف .. حتى اننا نجد القانون الرومانى ــ وقد أخذ من غير شك بيد الانسانية الى الأمام وأوجد شيئا من العدالة وتنظيم الحقوق والواجبات بين الناس جميعا ــ أقول ان هذا القانون الرومانى كان يحتفظ بحقوق خاصة لطبقة من الناس دون طبقة أخرى . وكان يشرع الاستعمار للاستعباد واستغلال الضعفاء ولم يكن يؤمن بالتساوى بين الدولة الرومانية وغيرها من الأمم الأخرى . فلما جاءت المسيحية لا تقر هذا الوضع حدث بينها وبين هذا القانون صدام عنيف أدى الى انكماشه .

بهذه الروحانية الصافية الخالصة كان المسيح عليه السلام يحاول أن يلغى من نفوس بنى اسرائيل الأثرة والأنانية وحب الذات والتعصب الأعمى حتى فى العبادة،ويقول أستاذنا المرحوم عباس محمود العقاد : كانت للشعوب آلهة يؤمن الاسرائيليون بوجودها ، ولكنهم يحرمون عبادتها كتحريم الانتساب الى دولة أجنبية ، فرب الشعب أحق بولائه وعبادته من الأرباب الأخرى (١) .

٢

جاء الاسلام والحال كما عرفنا ، اسراف لئيم فى المادية والأثرة ، واسراف سام فى الروحانية والايثار ، فكان قواما بين النقيضين .. ولم يقتصر على التشريع المادى فقط لأمة محدودة كالديانة اليهودية ، كما لم يحفل الا بالناحية الروحية فقط كالديانة المسيحية ، وانما جمع بين الناحيتين . وأراد أن يساير المرحلة التى بلغتها الانسانية ، فكانت أهم ظاهرة فيه أنه من أول أمره جاء داعيا الانسانية جمعاء اليه والى الانضواء تحت لوائه ، وانه جاء عاملا على التعاون والتآلف الانسانى بطريقة عملية فى غاية الروعة والكمال . ولعل من أهم الدعائم التى وضعها لذلك وقامت عليها مبادئه المساواة التامة بين الناس جميعا .. وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : الناس سواسية كأسنان المشط ..

---

(١) كتاب « الله » ص ١٢٣ .

وليس معنى ذلك أن الاسلام ينكر سنة التفاوت الذى هو ناموس طبيعى لا محيص عنه ولا يصح أن ينكره منكر مهما كابر بل انه يقر التفاوت بين الناس فى جميع المزايا التى يتفاضلون بها وينتظم عليها العمل فى الجماعة البشرية . فهم متفاوتون فى العلم والفضيلة « هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

وهم متفاوتون فى الجهاد الروحى والقدرة على الاصلاح « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » ، « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » .

وهم متفاوتون فى الرزق وأسباب المعيشة « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » . « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » ، والنبى الكريم يقول : « الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا » .

ولكن هذا التفاوت لا يرجع الى عصبية فى الجنس أو الأسرة ، اذ لا فرق بين انسان وانسان فى نظر الاسلام « انما المؤمنون اخوة » ، ولا فرق بين أمة وأمة ولا بين قبيلة وقبيلة ولا بين أحد وأحد الا برعاية الحقوق والواجبات « يأيها الناس انا

خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » . فالتعدد فى الأمم وسيلة التعارف والتعاون . وليس وسيلة الادعاء والتنابذ والتعصب للأجناس والتعالى بالعصبيات كما نراه اليوم فى العالم المتحضر فى أمريكا وجنوب افريقيا .

وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الآيات البينات بأحاديث فى معناها فقال : « لا فضل لعربى على عجمى . ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى » وقال : « اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى » . وكان عمر رضى الله تعالى عنه يتكلم عن الصديق أبى بكر ويشير الى بلال الحبشى فيقول : « هو هو سيدنا وأعتق سيدنا » .

فالاسلام — بهذه الأحكام المفصلة — قد أعطى المساواة حقها وأعطى التفاوت بين الآحاد والطبقات حقه .. فلا يمتنع التفاوت ، ولا يكون مع هذا سببا للظلم والاجحاف بالحقوق ، بل سببا لاعطاء كل ذى حق حقه ، ولو كان من المستضعفين فى الجنس أو المستضعفين فى المنزلة الاجتماعية . وباقرار التفاوت أقر الاسلام أصلح النظم التي تستقيم عليها حياة الفرد والجماعة فى كل زمان ومكان .

٣

والحق أننا لو قارنا بين الدين الاسلامى والديانتين الأخريين غير غاضين النظر عن مراحل التطور البشرى لكان ذلك وحده كافيا على صدقه وحاجة الانسانية اليه . فالدين المسيحى قد وجد نوعا من التعاون الانسانى . ولكنه كان ضئيلا وغير عملى لوجود النظام الكهنوتى فيه . وجاء كذلك منكرا للمادة ، داعيا الى الروح والى الزهد والقناعة وعدم الأخذ بأسباب الدنيا والسعى فيها .. فالانسان يأتيه رزقه من غير أن يحرك ساكنا ، يقول المسيح عليه السلام مخاطبا اليهود : « انظروا الى طيور السماء ، انها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن . وأبوكم السماوى يقوتها ، ألستم أنتم أحرى بالتفضيل عليها . من منكم اذا اهتم يستطيع أن يزيد على ما قدر ذراعا واحدة ؟ » . هذا هو لب الدين المسيحى ، ولذلك ظهرت فيه الرهبنة والكهنوتية .

أما الاسلام فجاء منكرا لهذا النظام الكهنوتى كل الانكار ، يقول النبى عليه الصلاة والسلام : « لا رهبانية فى الاسلام » . كما جاء حاثا على السعى فى الدنيا والتمتع بطيباتها ، يقول تعالى: « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ويقول جل شأنه : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، ويقول تبارك وتعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » ، ويقول

الرسول الكريم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . وفي هذا الحديث اشارة واضحة الى أن الرسول يريد الجمع بين الناحيتين : الناحية العملية المادية والناحية الروحية .

ويذكر أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه : جاء ثلاثة رهط الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهم : أما أنا فاني أصلي الليل أبدا . وقال الآخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثالث : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فقال الرسول عليه السلام : « أما والله اني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

والاسلام ينهى عن التواكل والقعود عن السعي في طلب العيش . وهو بذلك يرمي الى غرضين عظيمين : أولهما : تحقيق ذاتية الفرد ، وثانيهما : بذل الجهد في سبيل الارتزاق حتى يشعر المرء بمتعة الثمرة التي يجنيها بحبات عرقه ، وفي الوقت نفسه يقي نفسه ذل السؤال .. وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ، ويقول الفاروق عمر : « اني لأرى الرجل منكم فيعجبني ، فاذا قلت : أله صنعة ، فقالوا : لا ، سقط من عيني » .

وكانت الناحية الروحية عند الاسلام موضع عناية كبرى ، والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة الدالة على ذلك كثيرة لا يعيها حصر .. فالله تعالى يقرر فى كتابه العزيز أن كل نفس بما كسبت رهينة ، وأن لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .. الى غير ذلك من الآيات التى تدعو فى شدة الى العمل للآخرة والتزود بخير الزاد ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم . أما الأحاديث الشريفة فحسبى أن أسوق منها هذا الحديث : يقول الرسول الكريم مخاطبا أهله :

« يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب ، لاأغنى عنك من الله شيئا . ويافاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا » .

والاسلام بذلك يقرر التبعية الفردية التى تشعر المرء بعزته وكرامته وتحقق شخصيته الذاتية « قل يأيها النـاس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » .

وما من فضيلة حث عليها الاسلام الا كان تقدير جسالها بمقدار نصيبها من الوازع النفسى الشخصى ولا يضطر صاحبها أحد الى فعلها . فالحق الذى تعطيه ولا يضطرك أحد اليه هو أجمل الحقوق وأكرمها عند الله ، وأخلقها بالفضيلة الانسانية .

٤

وهكذا نرى الاسلام جاء وسطا معتدلا بين الدياتتين . وهو بذلك متفق مع طبيعة النفوس ومع طبيعة الأشياء والحوادث . فلم يستعمل القوة الا فى المواضع التى تحتاج الى القوة . ولم يكن شديدا صارما الا فى كل ما هو حق وواجب فقانونه الأخلاقى قائم على ما يتفق وسيكلوجية النفوس وظروف الزمان والمكان .. فقد أشاد بمبدأ القوة فى الأمور التى تحتاج فى علاجها الى الشدة والصرامة . وحبب الرفق والتسامح والصفح فى الظروف التى توجب ذلك . وأحيانا يخير الانسان بين أن يأخذ بحقه أو يعفو اذا لم يكن فى ضياع حقه مضرة لنفسه أو للمجتمع . بل انه وقف أحيانا بين الانسان وبين أن يفرط فى ماله حتى ولو كان للصدقة اذا كان غير فائض عليه ويحتاجه لنفسه أو لأولاده .. فقد روى أن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه انتابته علة ولزم داره فعاده النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان سعد قد ارتأى أن يتصدق بثلثى ماله أو بماله كله تقربا الى الله تعالى ؛ فسأله النبى عما ترك لولده ، فقال سعد : يغنيهم الله من فضله . فلم يقبل النبى أن يتصدق بغير العشر ، وما زال سعد يراجعه حتى رضى عليه السلام بالثلث وحرم الزيادة فوق ذلك وقال : الثلث والثلث كثير .. انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

فاسلام كما نرى جاء بعد أن ظهرت ضرورة ملحة فى تصحيح العقيدة الالهية وفى تكييف التعاليم السماوية . متفقا مع التطور الانسانى والتقدم البشرى ، فأخذ يعمل فى غير هوادة على لم شمل الانسانية وتقاربها وتآلفها وتعاونها . ولم يضع حوائل أو شروطا تحول بين انسان كائنا من كان وبين أن يكون مسلما الا أن ينطق بالشهادتين ، بل انه كان يشجع ضعاف الايمان على الدخول فيه ويحببه اليهم ، فجعل لهم نصيبا فى الزكاة وسماهم « المؤلفة قلوبهم » .

وبينما نرى الديانة اليهودية جاءت خاصة ببنى اسرائيل وحدهم ، والمسيحية نزلت فى أول أمرها لليهود فقط . ولم يكن يسمح بالدخول فيها لغير اليهود ، حتى دعا « بولس الرسول » غيرهم من كافة الناس للانضواء تحت لوائها ـ نرى الله تعالى يرسل محمدا عليه الصلاة والسلام الى الناس كافة بشيرا ونذيرا .

والمسيحية ـ كما نعرف ـ لم تأت بتشريعات سماوية تكون قانونا للناس يسيرون على ضوئه فى دنياهم ، وانما انتهى بها الأمر الى أن تحارب التشريعات اليونانية والرومانية ، وأن تقف فى النهاية حجر عثرة فى سبيل تطورها ، لذلك كان العالم فى مسيس الحاجة الى ديانة جديدة تصحح هذا الوضع وتتمشى مع الناموس الطبيعى للحياة ، حيث المادية وحدها غير قادرة على السير ، وحيث الروحانية وحدها غير كافية لتنظيم شئون الحياة

الدنيا . فكان لابد من وجود ديانة تمزج بين الاثنتين وتجمع بين النلحيتين ، فذلك أجدى على البشرية فى أسمى أوضاعها .

وما أصدق أحد كبار أدباء الغرب المنصفين ، وهو برناردشو Be-nard show حين أدلى برأيه صادقا فى الاسلام حيث قال : لقد وضعت دائما دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة . وانه الدين الوحيد الذى يستطيع أن يكون جوابا مقنعا لكل جيل من الناس .. واننى أتنبأ بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غدا .. وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم .. ولقد درست محمدا باعتباره رجلا مدهشا فرأيته بعيدا عن مخاصمة المسيح ، ويجب أن يدعى منقذ الانسانية .. كما أدرك كارليل وجبته وجيبيون القيمة الذاتية لدين محمد وسمو شأنه . ويبدو أن أوربا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيرا ، حتى ليمكن أن يقال ان تحرك أوربا الى الاسلام قد بدأ فعلا » (١)

٥

ولقد نزل كتاب الاسلام على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب . فكان أعظم دستور للبشرية جمع فأوعى ، وسما بها فى فترة قصيرة الى مكانة سامقة من الرقى والسمو لم تكن لتبلغها فى عدة قرون ، وأنشأ

(١) برنارد شو فى مسرحيه :
Captain Brassbound's Conversation P. 123:

امبراطورية ضخمة متفاسحة الأرجاء لم يعرف التاريخ لها مثيلا في سرعة نموها وترابطها وتماسكها ، وما سادها من عدل ومساواة وما امتازت به من حيوية وازدهار .

جاء الاسلام خاتم الدعوات الالهية . فكان لابد أن تتوفر في طبيعته المرونة التى توائم التطور الزمنى والرقى البشرى . فعول فى نشر دعوته قبل كل شيء على العقل وجعله مناط الايمان بمبادئه الكبرى . فكان يخاطبه في كل أمر من أموره ويحكمه فى كل شأن من شئونه . وفى ذلك يقول النبى الكريم : « الدين هو العقل ، ولا دين لمن لا عقل له » . ومن مبادئه المعروفة أنه اذا تعارض العقل مع النقل « أى النص » أخذ بما يتفق مع العقل . وذلك يدل من غير شك على تقديره للعقل وعلى عدم معارضته للفلسفة والعلم الذين لهما أثر من آثار الاجتهاد العقلى . فهو يعتمد على العقل فى تأويل أحكامه بما يتفق وطبيعة الأشياء وظروف الزمان والمكان .. يقول الأستاذ الامام محمد عبده فى « رسالة التوحيد » : « أجمع أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه أنه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر الى الله فى علمه . والطريق الثانى تأويل النقل ، مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل » (١) .

---

(١) رسالة التوحيد ص ٢١٠ .

والحق أننا لو تعمقنا البحث فى أحكام القرآن وفى أوامره ونواهيه لوجدنا أنه كان يرمى فى كل ذلك الى وضع قانون أخلاقى غاية فى السمو والكمال ، لأن العالم اذ ذاك كان خالى الوفاض من الرصيد الخلقى . ولم تكن تعوزه الفلسفة التى برع فيها سقراط وتلميذاه أفلاطون وأرسطو . كما لم تكن تعوزه نظريات القانون الرومانى المادى التى تنظم العلاقات بين الناس على نحو خاص . وانما كانت هذه الفلسفة وذلك القانون فى حاجة ملحة الى تطعيم قوى بالناحية الخلقية .. فأرسطو الذى وضع كتاب « الأخلاق » كان يحبذ الاغارة على الأمم المتبربرة واستعبادها؛ لأن الله — فى زعمه — لم يخلق الناس سواسية : وانما خلق بعضهم سادة كاليونانيين ، وبعضهم الآخر عبيدا كغيرهم من الأمم الأخرى .

والقانون الرومانى كان هو الآخر يشجع نظام الطبقات ويبرر الاستعمار والتسلط على الأمم المستعمرة لاستنزاف اقتصادياتها .

أما الرسالة المحمدية فقد جاءت لتحقق أهدافها السامية بما رسمت من قواعد ومبادىء . وكان النبى الكريم وكبار صحابته فى سلوكهم وتصرفاتهم خير أسوة تقتدى لتقرير هذه المبادىء .

وحياة محمد صلى الله عليه وسلم صفحة رائعة ومثال سام للخلق القويم من الوفاء والصدق والتواضع والايثار والمحبة .

ولم يعرف عنه أنه منح نفسه امتيازا أو سلطة خاصة . وكثيرا ما كان ينزل على رأى يخالف رأيه اذا وجد فيه صوابا . والمنصفون من مفكرى الغرب فى العصر الحديث يعترفون بذلك . وفى مقدمة هؤلاء الغربيين المفكر الانجليزى « ب. سميث » فى كتابه « محمد والدين المحمدى » . انه يقول : ان أعجب الأمور فى حياة محمد أنه لم يدع قط القدرة على اتيان المعجزات . فأى شىء قال انه يفعله رآه أتباعه وهو يفعله ، ولم ينسب أحد منهم اليه معجزة من المعجزات . بل ان محمدا نفسه حرص دائما على أن ينكر قدرته على الاتيان بها .. فأى دليل اذن أقوى من ذلك على الاخلاص يمكن أن يسوقه انسان ؟ لقد ظل محمد طيلة حياته وليس له لقب يفخر به الا أنه نبى مرسل من عند الله . واذا كان لأى فرد أن يدعى الحق فى تلقى الوحى من السماء فهو محمد . لقد كانت له كل السلطات دون أن يكون لديه أداتها .. وكان عادلا نبيلا ، فلم يكن يعوزه الرفق بأعدائه اذا ما استبانوا وجه الحق واتبعوا دعوته . وقد كان موقف مكة العدائى الطويل يحمل على البطش بهم بعد فتحها والتغلب على كفارها ، ولكنه عفا عنهم ، مدفوعا بكرم خلقه ، ملقيا بذكريات الماضى بما فيها من اهانة وسخرية واضطهاد وتصد فى زوايا النسيان .. الخ » (١)

وتحدث الكاتب الأمريكى « واشنجتون ارفنج » فى كتابه «حياة محمد » فقال : لقد احتفظ محمد — وهو فى أوج سلطانه

B. Smith : Muhammad and The Muhammedan Religion P. 42.

ــ ببسالة الخلق التي عرفت عنه في كل أدوار حياته . وكان يكره إذا دخل مكانا أن تؤدى له تحية غير عادية (١) .. ولم يكن له ملجأ في أوقات شدته غير الصلاة والثقة بالله . وعندما وقف على سرير ابنــه ابراهيم ساعة احتضــاره كان التســليم لارادة الله واضحا في سلوكه ، بينما كان يعاني أقصى ألوان الحزن . وكان عزاؤه أنه سيلتقي به ثانية يوما ما في جنة الخلد » (٢) .

أما كبار صحابته ــ رضوان الله تعالى عليهم ــ فــكانوا القدوة الصــالحة لقوة الخلق والعــدل والتواضع والتحــاب والتسامي . والمقام لا يتسع لذكر الأمثلة الكثيرة الدالة على ذلك . بيد أني أذكركم بقول الصديق أبي بكر ــ رضي الله عنــه ــ حين ولي الخلافة : أما بعد فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان رأيتموني على حــق فأعينوني ، وان رأيتموني على باطــل فسددوني . ألا ان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوى حتى آخذ الحق منه . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لي عليكم . أقول قولي هــذا وأستغفر الله لي ولكم » . ونحن نستشعر في هذا القول التواضع الجم ، والاعتصام القوى بحبل الدين ، ومناصرة الحق مهما يكن أمره . وأذكركم بقول عمر في احدى خطبه : الا اني والله مــا أرسلت عمالي اليكم ليضربوا أبشــاركم (أي جلودكم) ، ولا

(١) ومن ذلك يقول عليه السلام « لست من ملوك العجم او الروم ، انما انا ابن امرأة كانت تأكل القديد » .

Washington Erving : Life of Mohammed P. 105.

ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم اليكم ليعلموكم دينكم وسننكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه الى . فوالذى نفسى بيده اذن لأقصنه (أى آخذ منه القصاص) . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أفرأيت ان كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته انك لمقصه ؟ فقال عمر : والذى نفس عمر بيده لأقصنه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم،ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم .. الخ » (١) . وأذكركم كذلك بصنيعه مع جبلة بن الأيهم ملك غسان ، فقد أسلم هذا الملك وأسلم معه قومه ، ففرح بذلك عمر بن الخطاب ، وأكرم مثواه لما وفد عليه . وبينما كان جبلة يطوف يوما بالكعبة اذ وطىء أعرابى على طرف ازاره فانحل ، فالتفت اليه جبلة ولطمه على وجهه ، فشكاه الأعرابى الى الخليفة عمر ، فأمر عمر باحضاره وأوقفه أمامه بجانب الأعرابى وقال له : اما أن يلطمك الأعرابى كما لطمته ؛ واما أن تفتدى منه اللطمة بالمال ان قبل هو ذلك ، فقال الملك : أما يفرق بين الملوك والسوقة ؟ فرد عليه عمر بملء فيه : « لا،قد سوى بينكما الاسلام » فانصرف جبلة مغاضبا وارتد الى نصرانيته . ولكنه بعد أن ذهب عنه الغضب وثاب الى رشده ندم

تنصرت الأشراف من عار لطمة

وما كان فيها — لو صبرت لها — ضرر

(١) انظر امالى المرتضى ٢ /١٠٨ .

تسكنفني فيها لجاج ونخوة
وبعت لها العين الصحيحة بالعور

فياليت أمي لم تلدني . وليتني
رجعت الى القول الذي قاله عمر

على فعلته . وأنشأ قصيدة يبدى فيها ندمه ، يقول منها : (١)

فأنت ترى هذا الخليفة العظيم يحقق المساواة التامة التى نادى بها الاسلام . ثم انظروا الى تواضع عمر فى القصة التى ذكرها الطبرى ، ونحن نوجزها لك فيما يلى :

لما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح الى حين انتصاف النهار ، ثم يرجع الى أهله ومنزله . فلما ألقى البشير سأله من أين ، فأخبره ، قال ياعبد الله حدثنى ؛ قال : هزم الله العدو .. وعمر يخب معه ويستخبره ، والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة ، فاذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين ، فقال الرجل : فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟ فجعل عمر يقول : لا عليك يا أخى ! لا عليك يا أخى ! .

(١) اقرأ القصة والقصيدة كلها فى كتاب الامامة والسياسة ١/٩٢ .

وأبلغ من ذلك دلالة على التواضع والرحمة أنه لما انتصر المسلمون فى حروب الشـــام ذهب عمر الى مدينة دمشق ليعقـــد المعاهدة واستصحب معه رفيقا له ؛ ولم يكن معهما الا مطيـــة واحدة ، فكان عمر يراكب مرحلة ثم ينزل ويأمر رفيقه بالركوب مرحلة ويمشى خلفه . ولما وصل الى دمشق كلن الدور فى الركوب لغلامه . فدخل المدينة على هذه الصورة ، ولم ير فى هذا غضاضة. فلما رأى الناس منـــه ذلك دهشوا من تواضع هذا الخليفـــة العظيم ورحمته ، وأقبل الـــكثير منهم على الاســـلام بقلوب راضية (١) .

وعلى بن أبى طـــالب رضى الله عنـــه ـــ اشترى ثوبين ، أحدهمـــا أنفس من الآخر ، فأعطى عبده خيرهمـــا وأثمنهما ، واستبقى الآخر لنفسه ، فقال العبد : أنت يامولاى أحق بهـــذا الثوب ، فقال له على : كلا انك شاب تزهو بزيك ؛ أما أنا فقـــد هرمت (٢) .

الحق أن هذه الخلال الحميدة وتلك التصرفات الســـامية النبيلة تعتبر مثلا عليا يتأسى بهـــا الناس فى كل زمان ومكان . وهذه الصفات هى التى جعلت هؤلاء البدو الرعاة ســـادة العالم وقادته حين كانوا يستمســـكون بعروة الدين ويعتصمون بحبله .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٩٨ .

(٢) مقاتل الطالبيين الأصفهانى ص ٢٠٧ .

وبذلك استطاعوا أن يقيموا حكومة قوية راسخة ، فيها كل مقومات الحكومة الرشيدة التى يتصايح بها فلاسفة النظم الدستورية فى العصر الحديث .

واذا كان لنا أن نصف الحكومة التى نص عليها القرآن الكريم بصفة من صفات الحكومة العصرية فقد حق لنا أن نقول انها الحكومة الديموقراطية فى أصلح أوضاعها ، لأنها حكومة شورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية كما نص على ذلك كتاب الله فى أكثر من موضع ، مثل قوله : « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « وشاورهم فى الأمر » ، وقوله : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » . وقوله : « انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد » ، وقوله : « وما أنت عليهم بجبار » ، وقوله : « لست عليهم بمسيطر » .. الى غير ذلك من الآيات . وجملة مايقال فى هذه الحكومة القرآنية أنها الحكومة التى تكون لمصلحة المحكومين ، لا لمصلحة الحاكمين .. يطاع فيها الحاكم ما أطاع الله ، فان عصاه فلا طاعة له عليهم « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا » ، « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » فكل أركان « حكم الأمة للأمة » قائمة فى هذه الحكومة القرآنية .

(٦)

لقد جاء الاسلام ــ كما نرى ــ والعالم فى مسيس الحاجة الى رسالته السامية العظيمة التى ردت للبشرية كرامتها ، ورفعت من قيمة الفرد ، وجعلته يشعر بعزته فى ظل الاسلام ، وبمساواته التامة فى الحقوق والواجبات ، يستوى فى ذلك الصغير والكبير ، والحر والعبد ، والرجل والمرأة .

وكان النبى وصحابته يعاملون مواليهم أكرم معاملة ، بل انهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم فى كثير من الأحيان كما رأينا . فلا عجب اذا رأينا أسامة بن زيد مولى الرسول عليه السلام لايرغب فى أن يتركه ويذهب مع أبيه الى مكة ليعايشه ، ويؤثر البقاء مع الرسول الكريم لسمو معاملته وجلال شمائله ونبل رعايتــه التى تفوق عطف الأبوة ، حتى انه أمره على الجيش الذاهب الى الشام ، وفيه عدد كبير من كبار الصحابة وعظماء قريش كانوا يحاربون تحت امرته .

مما سبق ندرك فى غير عسر أن الاسلام جاء صالحا للناس جميعا ، وانه ساير سنة التطور وناموس التدرج الانسانى . ولم يكن فى تشريعاته يخص البيئة التى انبثق منهــا ، وانما كان فى كل ماشرعه مراعيا الانسانية كلها على مر العصور والأزمان فى بقاع الأرض جميعا .

ونحن اذا نظرنا الى التشريع الاسلامى وجدنا أنه يستمد مواده من مصادر أربعة :

أولها : الكتاب ، وهو القرآن الكريم فى كل ما جاء به من الأوامر والنواهى ، سواء فهم ذلك من صريح عبارته ، أو عن طريق الاشارة أو الدلالة .

ثانيها : السنة ، وهى كل ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير . وهى تستهدف تفصيل ما أجمله القرآن ، أو تبيان ما سكت عنه ، بشرط أن يتفق وروح القرآن ويهضمه العقل الناضج البصير ، لنخرج بذلك الأحاديث المدسوسة على رسول الله .

ثالثا : الاجماع ، وهو اتفاق أغلبية أهل لحل والعقد والثقات من مجتهدى المسلمين على رأى من الآراء فى أمور الدين والدنيا ، فيصبح بذلك قانونا شرعيا يجب الأخذ به .

رابعا : القياس ، وهو الحاق فرع بأصل ، ويكون ذلك فى الأشياء التى لم يرد فيها نص . فالانسان يحكم عقله ، مستهديا روح الكتاب والسنة ، ويقيس ما يعرض له على ضوء الغاية من التشريع ، وعلى ضوء ادراك العلة فى الأمر والنواهى.

هذه هى المصادر الأربعة التى تعتبر منبعا للتشريع الاسلامى، وقد وجدت على هذا الترتيب المتسلسل . فالقرآن فى المقدمة لأنه الأصل فى التشريع ، قال تعالى : « مافرطنا فى الكتاب من

شيء » وقال جل شأنه : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ؛ ولأنه جاء عاما جامعا شاملا لكل التشريعات الالهية التي سبقته ، يقول الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى » . ولكنه راعى سنة التطور وعوامل البيئة وظروف الزمان والمكان . ونراه يضع لبعض الأوامر والنواهي حدودها ويفصل أغراضها أحيانا ، وأحيانا آخرى يدعو الى أمور مجملة ليس فيها شيء من التفصيل والتحديد ، مثل اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان وبعض العبادات الأخرى والمعاملات ، وترك تفصيلها لأقوال الرسول وأفعاله ، وللمصدرين الأخيرين وهما الاجماع والقياس .

ثم انه ترك أشياء غير غافل عنها ، لأنه ـ كما قلنا ـ جاء مرنا مسايرا حاجات الناس واختلافهم في ظروف الحياة وفي جميع الأطوار جيلا بعد جيل . فلم يشأ أن يقيدهم في دائرة مقفلة من القوانين التي لاتساير مصالحهم ولا تنهض بمطالبهم . يقول الأستاذ المرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف : من الأمور التي روعيت في التشريع التقليل من التقنين . وهذا يتجلى في أن الأحكام التي شرعها الله ورسوله لم تشرع الا على قدر الحاجة التي دعت اليها ، والأقضية والحوادث التي اقتضتها . ولم تشرع منها أحكام لحل مسائل فرضية أو الفصل في خصومات محتملة . ويتجلى أيضا مما ورد في القرآن والسنة من النهي عن الاكثار

من الأسئلة التي تقتضي تشريعا ، فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم » . ونهى رسول الله عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال فقال : « أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألة » ، وقال عليه السلام : « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنهكوها. وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » (١) ويمضى الشيخ خلاف قائلا : والحكمة فى هذا أن التشريع انما هو لدفع حاجات الناس وتحقيق مصالحهم ، فينبغى فى كل عصر على تشريع ما اقتضته حاجاته وتحقيق مصالحه ، حتى لا يجد اللاحقون من تشريع السابقين عقبات تحول دون تشريع ما يدفع حاجاتهم ويحقق مصالحهم » .

ثم يلى المصدر الأول فى الأهمية المصدر الثانى وهو السنة . ثم يأتى الاجماع بعد ذلك ، ويشترط فى علمائه أن يكونوا معروفين بالصلاح والتقوى والجرأة فى الحق . وهو لون من ألوان الشورى وتبادل الآراء ، قريب الشبه بالحياة الديموقراطية الحديثة .

---

(١) انظر كتاب : علم الفقه وتاريخ التشريع الاسلامى » لعبد الوهاب خلاف ص ٢٤ .

ورابع هذه المصادر القياس ، ويراعى فيه أن يكون متفقا مع روح الاسلام ، متمشيا مع ما ينشده من اصلاح ورقى للانسان .

ولا مشاحة فى أن المصدرين الأخيرين «الاجماع والقياس فيهما ميدان فسيح لوضع تشريعات تساير التطور البشرى والرقى الانسانى فى جميع العصور والبقاع .

وقد دعا النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته الى الاجتهاد والرأى فيما لم ينزل فيه حكم صريح فى كتاب الله أو سنة رسوله. فقد روى البغوى عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه الى اليمن قال له : كيف تقضى اذا عرض لك قضاء؟ قال : أقضى بكتاب الله ، قال : فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسوله ، قال : فان لم تجد فى سنة رسوله ؟ قال : أجتهد رأيى لا ألو . فضرب رسول الله على صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله (١) .

وقد أوصى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أبا موسى الأشعرى لما ولاه قضاء الكوفة وصية طويلة قيمة يقول له فيها : ولا يمنعنك قضاء قضيته أمس فراجعت فيه اليوم عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع الى الحق ؛ فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » ثم يقول له : الفهم الفهم فيما تلجلج

---

(١) السيوطى : الاتقان ١١٧/٢ .

فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور بنظائرها .. الخ » (١) .

ولرب قائل يقول : ان هـذه التشريعـات تتصل بالأمور الدنيوية ليس غير . ولكن الرد على ذلك يسير : فان أمور الدنيا والدين فى الاسلام ملتحمة ، يكمل بعضها بعضا . فالدين وسيلة لاصلاح المجتمع الدنيوى ، كما أن أعمال المرء فى دنياه هى التى تقرر مصيره فى الآخرة . و لعبادات كلهـا وسائل لتحقيق غايات سامية هى لب الاسلام وجوهره وحقيقته ، مثل الصدق والوفاء والاخلاص والتواضع والحنان والتراحم والتكافل ويقظة الضمير وغير ذلك من الصفات الكريمة التى يستهدفها الاسلام .

٧

ولعل من أخص ما يمتاز به الدين الاسلامي أنه يدعو بقوة الى التفـكير وطلب العلم ، وهما ـ لاشك ـ الأداتان اللتـان تدفعان بالمجتمع البشرى الى الرقى والوقوع على كل جديد نافع . وذلك لأن القرآن كتاب عقيدة يخاطب الضمير ، ومن ثم فهو يحث على التفكير ، وليس فيه حكم من الأحكام يشل حركة العقل فى تفكيره ، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم . وهذا مكفول للمسلم فى كتابه ، كما لم يكفل قط فى كتـاب من كتب الأديان الأخرى .. فهو يجعل التفكير السليم والنظر الصحيح الى آيات

---

(١) الكامل للمبرد ١/٢ .

خلقه وسيلة من وسائل الايمان بالله ، يقول تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك . فقنـا عذاب النـار » . وهو يحث المسلم على أن يفكر فى عالم النفس كما يفكر فى عالم الطبيعة ، يقول الحق جل وعلا : «أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهمـا الا بالحق وأجل مسمى » . وهو يعظ المخالفين والمصدقين عظة واحدة ، هى التفكير الذى يغنى عن جميع العظات ، يقول تعالى : « قل انمـا أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا» ، ويقول: « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » ، ويقول : «وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

ولا يرتفع المسلم بفضيلة كمـا يرتفع بفضيلة العلم ، يقول تعالى : «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» ويقول : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » . ولا يسأل المسلم ربه نعمة أجل وأقوم من العلم . يقول الله : «وقل رب زدنى علما » ، ويقول : « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

وربما كانت فضيلة الاسـلام الـكبرى أنه يفتح للمسلمين أبواب المعرفة ويحثهم على ولوجهـا والتقدم فيهـا وقبول كل مستحدث من العلوم على تقدم الزمن وتجـدد أدوات الكشف ووسائل التعليم .

ومما تمتاز به الفرائض الاسلامية كذلك أنها تقصــد الى صلاح الفرد أو صلاح الجماعة .

فصلاة الجمعة واجبة على المسلمين مقدمة على البيع والشراء ومطالب المعاش « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

نعم انها لفسحة كريمة من الزمن تعلو فيها الجماعة عن صغائر الحشع وأطماع الدنيا ، وتخرج من ضيق هذه الشواغل الدنيوية الى غاية ارفع واسمى من هذه الغاية ، وتذكر ما ينفعها ذكره كلما استغرقها ذكر المنافع والغوايات ، وترى عظماءها وصغراءها معا فى ساحة واحدة بين يدى العظمة الالهية التى تطامن من كبرياء العظيم وترفع من نفسية الصغير .

واذا صلى المسلم منفردا فى سائر الصلوات الأخرى فهو فى انفراده يشعر فى أعماق نفسه بأن هناك آصرة كبرى تجمع بينـه وبين سائر المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهى اتجاههم جميعا وجهة واحدة ، واستقبالهم معا قبلة واحدة ، ودعاؤهم بدعاء واحد ، وان تباعدت بينهم الديار .

وحسب المسلم أن يقف بين يدى الله خمس مرات من مطلع الشمس الى زوال شفقها ليطهر نفسه من شوائب الدنيا ، وتمتزج

حياته بالعنصر الالهى ، ويحاول جهد طاقته ألا يأتى اثما أو يقترف ذنبا « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

والزكاة مصحة للجماعة ، لأنها تقيم دعائم التعاون بين الأغنياء والمحرومين ، وتعالج مشكلة الفقر والحاجة علاجا يقوم على التعاطف والتكافل . فضلا عما فيها من ترويض للنفس على بذل جزء من المال العزيز عليها ، وتعويدها السماح بالبذل والايثار وشعورها بأنها مسئولة عن غيرها فيما أفاء الله عليهم من رزق في الحيـــاة .

والحج مؤتمر عالمى يعقـــده المسلمون كل عام فى موعـــد معروف ، فيجتمعون فى صعيد واحد ويتعـــارفون ويتشاورون ، ويتذاكرون فى أمورهم ، ويفضى بعضهم الى بعض بما يعلمون من أحوالهم وما يشكون من متاعبهم ، ويستعيدون أمام أعينهم سالف سؤددهم وغابر مجـــدهم ، فلا يصبرون طويلا على حاضر دون ذلك الماضى العظيم .

أما الفرد فانه يغنم من حجه مغانم كثيرة ، اذ يعوده رياضة النفس على المشقة وينشطه بعـــد طول اللبث والجمام ، ويزوده بمعارف قيمة يكتسبها من السياحة ما كان يسكنه الحصول عليها بدونها ، وهى معارف تفتح البصائر والقلوب وتقشع عمى الأبصار وحجاب الأسماع ، يقول الله تعـــالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

والصيام له مظهر اجتماعي ذو روعة وجمـال .. ولنتصور آسرة ضخمة عظيمة تتكون من مئـات الملايين تنتشر في جوانب الأرض وتقترن شعائرها الدينية كل يوم بأوثق ما يتصل بالانسان في معيشته ليومية ، وهو أمر الطعام والشراب ومتع الأجساد .. ملايين من الناس في بقاع الأرض . يطعمون على نظـام واحد ، ويمسكون عن الطعام على نظـام واحد ، ويستقبلون ربهم على نظام واحد . وقلما انتظمت أسرة يعيش أفرادها بين جدران بيت واحد على مثل هذا النظام .

أما الفرد فانه يستفيد من الصيام خير ما يستفيده الانسان في حياته الروحية وفي حياته الخلقية ، وهو ضبط النفس وشحذ عزيمتها والتسلط عليهـا ، والشعور بوعثـاء الجوع والعطش ، فيتولد في نفسه الشعور النبيل باطعام المحروم ومعاونة الفقير .

ومدار هذه الفرائض كلهـا على السماحة واليسر ، لا على العسروالارهاق . يقول الله تعالى : «وماجعل عليكم في الدبن من حرج » ، ويقول جل شأنه : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، ويقول النبي الكريم « ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه » .

ومن ثم فليس هناك شعائر دينية خير من شـعائر الاسلام . فهي أصلح هذه الشعائر المفرد والجماعة دينا ودنيـا في جميع العصور .

(٨)

هذه هي شعائر العبادة ، وهي ـ كمـا نرى ـ تنظم علاقة العبد بربه ، ففيها تهذيب للروح وتطهير للنفس ، كما أن فيهـا بالاقتضاء ما يفتح للانسانية آفاقا فسيحة من المؤاخاة والمسـاواة والتعاطف والتراحم ، مما هي في مسيس الحاجة اليه في كل حين.

أما مايتصل بعلاقة العبد بأخيه العبد ، من معـاملات ورسم لقواعد المعاشرة والمخالطة والسلوك في السلم والحرب فهي آية الآيات في السمو والـكمال والابداع مما يعجز أسـاطين الفكر والسياسة والاجتماع في العصر الحديث عن الاتيان بمثله..وصدق الله العلي الكبير « مافرطنا في الكتاب من شيء » .

فأين هؤلاء من قول الله تعالى في مقابلة الاساءة بالاحسان وأثر ذلك : « ولا تستوي الحسنة ولا السيئـة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » . وقوله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، وقوله في ايثـار العفو : « وان عاقبتم فعـاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » ، وقوله « فمن عفـا وأصلح فأجره على الله » ، وقوله في أصول المؤاخاة : « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . و لاتلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك

هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم » . وقوله فى آداب الزيارة وما فيها من معان انسانية : « يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، واذ قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم » . أو غير ذلك من الآيات الكثيرة التى لا يتسع المقام لذكرها ، وكلها تحث على الفضائل الانسانية والآداب الخلقية فى أسمى ذروتها .

ثم أين هم من قول نبينا الأمى العظيم فى سماحة النفس وأدب المقاضاة .. جاءه عليه الصلاة والسلام رجل يهودى يستأديه دينا له ، وجذبه جذبة شديدة ، فانتضى عمر سيفه وهم بقتل اليهودى ، فمنعه الرسول الكريم وقال له : ياعمر « ألا أدلك على شىء خير مما تفعل ؟ فقال عمر : بلى يارسول الله ، فقال النبى : مره بحسن المطالبة ، ومرنى بحسن الأداء ، رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى » (١) .

وقوله فى ضبط النفس وكبح جماحها : « ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد من يصرع نفسه عند الغضب » .

---

(١) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين للخضرى ص ١٥٦ .

وقوله فى اعطاء كل ذى حق حقه : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » .

وقوله فى التراحم و تعاطف : « الراحمن يرحمهم الرحمن . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

وقوله فى أدب الصحبة : « اذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فان ذلك يحزنه » .

وقوله فى الحفاظ على الصداقة : « لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان ، فيعرض هذا ويعرض هذا .وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » . وقوله فى لحث على العدل وتجنب الظلم الذى هو أس البلاء بين الحاكم والمحكوم « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة » ، وقوله : « اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وقوله فى آداب المجالس : « لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم » .

وقوله فى الحث على التواضع : « آلا أخبركم بشر عباد الله ؟ الفظ المستكبر » أو .. أو .. الى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى لايعيها حصر . وكلها ترسم للناس جميعا المثل الأعلى فى حياتهم وفى معاملاتهم وفى علاقاتهم بعضهم ببعض . وهى صالحة لهم على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم وأزمانهم .

ونحن نسوق هذه الأمثلة من كتاب الله ومن أحاديث نبيه لنبين أن تشريعات الاسلام المثلى ترسم للناس مجتمعا مثاليا ساميا كاملا فيه غمبزة لغامز أو ثغرة لنافذ . وما أصدق ما قاله المفكر الانجليزى « أوليرى » فى كتابه « بلاد العرب قبل محمد » (١) : ان الانسان ليحار فى أمر هذا الرجل الأمى الذى وضع للعرب برسالته لسامية مجتمعا عاليا قويا ترفرف عليه المؤاخاة والنظرة الصحيحة للحياة ، بعد أن كانوا همجا لايطمع أحد فى صلاح أمرهم ، لأنهم كانوا قبل الاسلام يضربون فى بيداء الجهالة والأحقاد والتمزق » ثم قال بعد كلام : « فأى مصلح اجتماعى فى عصرنا يستطيع أن يضيف الى هذا المجتمع الاسلامى شيئا يسد به نقصا يكفيه .

(٩)

وقبل أن أنتهى من مقالى أحب أن أقول ان هناك سؤالين يترددان فى نفسى أو أن أبسطهما أمامنا وألتمس لكل منهما جوابا على ضوء ما ذكرنا . وأظن أن المعنيين بدراسة التشريع الاسلامى والمواءمة بينه وبين مقتضيات العصر الحديث مهتمون بهما كل الاهتمام وهما :

O'Leary : Arabia before Muhammad P. 204.

الأول : هل التشريع الاسلامي يخضع لظروف الزمان والمكان ؟ أم أن ظروف الزمان والمكان هى التى تخضع للتشريع ؟

الثانى : هل الاسلام يقبل تغيير وسائله ومظاهره فى جيل بعد جيل ما دام فى ذلك حفظ لجوهره وتحقيق لغاياته ؟ أم أنه لا يقر تغيير هذه الوسائل وتلك المظاهر وان لم تعد صالحة لتحقيق غاياته والمحافظة على جوهره ؛ وجوابى عن السؤال الأول أن التشريع الاسلامى هو الذى يخضع للبيئة وظروف الزمان ؛ لأن المقصود من التشريع هو تحقيق مصالح الناس المشروعة وإسعادهم وعدم تكليفهم ما يشق عليهم .

والمعروف أن مصالح الناس ونظراتهم الى الحياة وحكمهم عليها تختلف بالنسبة لهم باختلاف الزمان والمكان . والباحث فى التشريع الاسلامى من أول القرن الثانى الهجرى الى منتصف القرن الرابع يجد أن أئمة المجتهدين والمشرعين راعوا طبيعة هذا الاختلاف وما يقتضيه ذلك من اخضاع التشريع الاسلامى لظروف الزمان . فالامام الشافعى رضى الله تعالى عنه أنشأ مذهبين : أحدهما قديم ، وقد أنشأه فى العراق ، والآخر جديد وقد أنشأه فى مصر . والمذهبان يختلف كل منهما عن الآخر اختلافا بينا . ولم يأخذ عليه أحد أنه أخطأ أو ضل السبيل وانما عمل بما تقتضيه طبيعة الأشياء واختلافها بين أمة وأمة وبين زمان وزمان . ويقول المرحوم الأستاذ عبد الوهاب خلاف : من

الأمور التى روعيت فى التشريع الاسلامى مسايرته مصالح الناس ، وبرهان هذا أن الشارع علل كثيرا من أحكامه بمصالح الناس ، ودل بشواهد عدة على أن المقصود من تشريع الأحكام تحقيق مصالح الناس . والأحكام تدور مع عللها وجودا وعدما ولهذا شرع الله بعض الأحكام ثم أبطلها ونسخها لما اقتضت المصلحة تعديلها . فقد فرض الاتجاه فى الصلاة الى بيت المقدس ثم نسخه وفرض الاتجاه الى الكعبة . وفرض عدة المتوفى عنها زوجها حولا . ثم نسخه وفرضها أربعة أشهر وعشرة أيام وحرم الدم على اطلاقه ، ثم عاد وحرم المسفوح منه فقط . والرسول نهى عن زيارة القبور ، ثم أباحها . فهذا النسخ وذلك التبديل فى وقت التشريع برهان على أن التشريع الاسلامى ساير مصالح الناس مادام ذلك لا يهدم أصلا من أصول الدين ولا يجلب لأصحابه ضررا .. » (١)

ثم أجيب على السؤال الثانى فأقول : ان الاسلام يقبل من غير شك تغيير وسائله ومظاهره مادام يتأتى من هذا التغيير تحقيق لغاياته فى سهولة ويسر وبأوسع طريقة وأدق معنى . فالفقر الذى عالجه الاسلام فى الزمن الأول بالزكاة وبدعوة القادرين على الاحسان قبل أن تتسع أمور الحياة وتتعقد مسائلها الى هذا الحد الذى نراه ، وقبل أن تنهض هذه الحضارة المادية بما صاحبها من نواح شتى للانتاج بسبب انتشار العلم

---

(١) أصول الفقه وتاريخ التشريع الاسلامى ص ٩٦ .

وكثرة الصناعات . أقول ان الفقر الذى عالجه الاسلام بالوسيلة الأولى لم تعد هذه الوسيلة مجدية فى علاجه ولا تؤدى الى الهدف الذى ينشده الاسلام ، وهو خلق مجتمع غنى قوى متكامل . هذا الى أن هؤلاء الذين كان لهم حق معلوم فى الزكاة لم يعد لهم وجود الآن . فالدولة هى التى تتكفل بتحقيق الغاية من مشروعية الزكاة ، وهى محاربة الفقر بوسائلها المشروعة وهى المسئولة عن الفرد بجعله مواطنا صالحا نافعا فتخلق له العمل ان كان عاطلا ، وتعني به اذا ادركته الشيخوخة ، أو أقعده المرض عن العمل ، وتبذل أقصى جهدها فى سبيل تعلميه وتثقيفه حتى يفيد وطنه وأمته ويعرف مكانه فى المجتمع . ولها أن تفرض فى سبيل ذلك من الضرائب ما تشاء . والعبرة و لمعول عليه في الاسلام هو تحقيق الغاية وليس المحافظة على الوسائل

ومن استقرأ أحكام الخلفاء الراشدين ومن سار على سنتهم تبين أنهم وضعوا فى اعتبارهم الأول صالح الناس والدولة . فأبو بكر استخلف عمر ، وجمع صحف القرآن التى كانت متفرقة وحارب ما نعى الزكاة . وعمر لم يستخلف أحدا وترك أمر المسلمين شورى ، وأمضي الطلقات الثلاث بلفظ واحد ، وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم وعطل حد السرقة فى عام المجاعة ووضع الخراج ودون الدواوين . وعثمان جدد أذانا ثانيا يوم الجمعة وجمع المسلمين على مصحف واحد وأحرق ما يخالفه وورث من طلق زوجته فى مرض موته هربا من أن ترثه .

ومستند كل منهم فيما صدر عنه مطلق المصلحة ليس غيره

بساطة العقيدة الإسلامية

لقد دعا الرسول العربى الكريم عبدة الأصنام وأتباع نصرانية ويهودية محرفتين الى أصفى عقيدة توحيدية ، هى الايمان بأن لا اله الا الله ، وبأن محمدا رسول الله . وارتضى عليه السـلام أن يخوض صراعا مكشوفا مع بعض نزعات البشر الرجعية التى تقود المرء الى أن يشرك بالخالق جل وعـلا آلهة أخرى « قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد . ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحـد » .

ولم يلجأ الرسول ـ لكى يقود النـاس الى الايمان باله واحد ـ الى استهوائهم بروايات عن أحداث تنحرف عن سبيل الطبيعة السوى ، تلك الأحـداث التى تسمى معجـزات . ولم يكرههم على اصطناع الايمان والتزام السكينة ببعض التهديدات السماوية التى لا تؤدى الا الى تعطيل قدرة الانسان عـلى التفكير .

بل انه ـ عليه السلام ـ دعاهم ببساطة ومن غير أن يحملهم على الابتعاد عن عالم الحقيقة ، الى التفكير فى الكون وسننه .

ولما كان واثقا بأن كل عاقل سوى الفكر لابد أن يؤمن آخر الأمر بالاله الواحد الواجب الوجود . فقد اكتفى بدعوة الناس الى أن يقرأوا كتاب الحياة . وقد أشار الأمام محمد عبده الى أن الرسول العظيم كان يكتفى بمخاطبة ضمير الفرد ذاته (١) . انظر اليه يتلو عليهم قول الله تعالى من سورة البقرة : « وإلهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم . ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

والقرآن الكريم يدعو الناس فى مواطن كثيرة الى التأمل فى البراهين القوية الحاسمة التى تقدمها الطبيعة والتى تدل على كمال قدرته وتمام عظمته . وأنا أجتزىء هنا بذكر بعض الآيات من سورة الرحمن : « والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار . فبأى آلاء ربكما تكذبان . رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٩٥ .

يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان . وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان »

وقد اندثرت الوثنية بفضل الاسلام ، ولم يقو دين آخر على أن يقهرها تماما . وبفضل الاسلام تحرر مفهوم الكون وشعائر الدين وأعراف الحياة الاجتماعية من جميع المسوخ التى كانت تحط من قدرها ، وتحررت العقول الانسانية من الهوى ، وأدرك الانسان آخر الأمر مكانته الرفيعة « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . ولم يذل الانسان نفسه الا أمام الخالق رب العالمين ، وتعين عليه فى الواقع أن يقول مع الرسول الكريم : « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت » .

وقد أطلق الاسلام ارادة الانسان من القيود التى طالماأبقته موثقا الى ارادة أناس آخرين ، أو الى ارادة قوى أخرى يدعونها خفية . فقد سقط الكهان ، وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون ، وجميع هؤلاء الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والانسان . أقول لقد سقط هؤلاء عن عروشهم ، وغدا الانسان خادم الله وحده ، ولم تعد تشده الى الآخرين من الناس غير التزامات الانسان الحر نحو الانسان الحر .

وبينما قاسى الناس فيما مضى مظالم الفروق الاجتماعية أعلن الاسلام المساواة بين البشر وجعل التفضل بين المسلمين على

أساس التقوى والاعتصام بحبل الدين « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » لا على أساس المحتد والجاه والمال والسلطان . يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب ؛ ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

ولقد أزال الاسلام السرية لتى أضفاها الآخرون على دراسة الكتب المقدسة ، مؤنبا أولئك الذين لا يحسنون غير تلاوة كلمات الكتاب ،ومشبها أولئك الذين يزعمون أنهم يحتفظون بالتوراة بالحمار الذى يحمل أسفارا .

وقد ركز الاسلام دعوته الأولى فى وجوب الاعتراف بوجود اله واحد فى جوهره وفى صفاته وفى أفعاله ، وهو ذو قدرة كلية كاملة ، وهو سيد الكون وسيد يوم الحساب ، ويجب أن يعتمد عليه كل مخلوق ، ويؤمن به ايمانا كاملا لا يعتوره وهن .

والآيات القرآنية التى نزلت فى فجر الدعوة الاسلامية كانت تتناول موضوعات الموت والبعث والخلود والحساب وما اليها . وقد أنذر الله أولئك الذين لا يتوبون اليه ولا يسلمون اليه أمرهم بالعقاب الرهيب ، فويل لهم مما كسبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . والويل كل الويل لأولئك الذين يجرءون على مخالفة الأنبياء المرسلين اليهم . ان الله سوف يستأصلهم ويقطع دابرهم . وهو الذى يعرف كل شىء ، ويرى كل شىء ، ويسمع كل شىء . انه خالق السماء والأرض ،والحياة

والموت ، انه رب العرش العظيم . وان ارادته لمطلقة ، وقونه لا سبيل الى مقاومتها . وكل هذه الصفات تتجلى فيما صنع ان كل شيء فقير اليه ، آما هو فغنى عما أبدع ، وهو لا يسبه أيا من مخلوقاته . والصلة الوحيدة التى تجمعه بها هى أنه خلقها، وهى له واليه مرجعها .

ولكن هذا الاله القوى الجبار هو أيضا اله عادل ، وهو لن يضيع أجر من آحسن عملا ؛ ولا يظلم أحدا من عبادهفتيلا .

وكثيرا ما بحث لاهوتيو المسيحية ورجال الدين الاسلامى مسألة الارادة الانسانية ، وهل الانسان حر في ارادته أو غير حر فيها . وقد اختلفوا فى ذلك طرائق قددا . ولكنهم جميعا كانوا لا ينكرون البدهية السالفة القائلة بالعدل الالهى . كما كان المسلمون الأوائل لا ينكرون أن أعمال الانسان ، صالحها وطالحها ، هى ثمرة حريته الكاملة . وقد استخلصوا ذلك من الآيات الواردة فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : « وماألتناهم من عملهم من شيء ، كل امرىء بما كسب رهين » ، وقوله تعالى : « لايكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، وقوله جل وعلا : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون»، قوله: « ليجزى الله كل نفس ماكسبت ان الله سريع الحساب » ،وقوله تبارك وتعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم » . وغير ذلك من الآيات الكريمة التى تدل فى صراحة

على أن الانسان يأتى من الأفعال ما يأتى بمحض اختياره . ولذا فهو مسئول عما يفعل . « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شر يره » .

فضمير الانسان نفسه هو الذى يحمل مسئولية أعماله . والله تعالى لا يوصد سبيله فى وجه أحد من عباده . حتى الآثمين منهم ، فمن تاب وآمن وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا . وهو يضفى على كل امرىء القدرة على القيام بالعمل الصالح . والانسان فى علاقته بالله يمكن تشبيهه بالمسافر الذى يرتكب خطأ فى الصحراء حين يبحث عن الطريق التى تقوده الى غايته التى اليها يقصد . فأما الذى يستحق بفضل ايمانه وعمله الصالح رحمة الله وعطفه فسوف يجزيه الله بالهداية ، فى حين أنه يتخلى عن ذلك الذى لا ينصرف الى العمل ويتركه وشأنه ، ولا يمد يده اليه ، ولكنه فى الوقت نفسه لن يكون هو الذى يدفع به الى طريق الشر .

هذا الاله القادر على كل شىء ، الشديد العقاب للعاصين ، هو أيضا الرحيم ، الحافظ لعباده ، هادى الاثم الى سواء السبيل ، غافر الذنب وقابل التوب ، مستجيب الدعوات ، مغدق النعمة ، لأن الخير كله بيده .

ورحمة الله تكاد تكون أكثر الصفات ورودا فى القرآن الكريم . وكل سورة فى القرآن تستهل بهاتين الصفتين الكريمتين: الرحمن والرحيم ، لأن رحمته فى الواقع وسعت كل شىء ، ولأنه

هو نفسه قد أمر بأن تكون الرحمة قانونا لايصح خرقه . وفى ذلك يقول الرسول الكريم : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده : ان رحمتى تغلب غضبى (١) » ، ويقول عليه السلام : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه (٢) » .

ومن بين الصفات الالهية نجد صفة الحب ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » . ويقول الله تعالى فى حديث قدسى : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وماتقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضته عليه . ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه (٣) » .

ولرب قائل يقول : ان هذا الذى جاء به الاسلام ليس أصيلا ، وانه يشبه المفهومين اليهودى والنصرانى الى حد بعيد. ولكن ما أيسر الرد على ذلك ، فلم يزعم النبى عليه الصلاة

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما عن ابى الدرداء .
(٢) رواه ابن حنبل فى مسنده عن عبد الله بن عمر .
(٣) رواه الترمذى عن ابن عباس .

والسلام أنه جاء بشيء جديد . ولكنه أعلن في جلاء أن الله أرسله ليعيد ملة ابراهيم ـ التي حرفت من بعده ـ الى أصلها . ويؤكد ما كان الله قد أوحى به الى أنبيائه السابقين . وأنه آخر الأنبياء والرسل حملة التشريع عليهم السلام .

لقد جاء الاسلام في زمن كان الناس منقسمين فيه الى فرق دينية والى معتقدات متباينة . وكانوا يتقاتلون ويلعن بعضهم بعضا ، وكانت كل فرقة ترى : بل تعتقد أنها المستأمنة وحدها على كلمة الله : في زمن كان القتال والتعصب معتبرين فيه جزءا ضروريا من الحياة الدينية .

جاء الاسلام وأعلن أن الدين كان في جميع العصور . وعلى أفواه الأنبياء جميعا . دينا واحدا ، وأنه في جوهره كان يدعو الى التعاليم نفسها .. فهو يدعو الى الايمان بوحدانية الله . وبالخضوع لارادته ، وبالعمل بأوامره . وبالأخذ بأسباب الخير واجتناب الشر . وفوق هذا أصر الاسلام على أن مختلف الأشكال والطقوس التي قدمتها الأديان المتباينة انبثقت كلها من رحمة الله الذى أتى كل قوم في كل وقت بعينه دينا يلائم حاجاتهم ويساعد على التطور مع تقدم العقل الانساني. ولكنه أصر على أنه ـ عندما نضج الجنس البشرى آخر الأمر وأصبح ، بفضل الأحداث ، مستعدا لفهم رسالة دينية لاتخاطب عواطفه فحسب ، بل تخاطب عقله أيضا ، ظهر محمد صلى الله عليه وسلم ليوفق بين هذه التعاليم كلها لصالح الانسانية ،

وليسوى الخلافات بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وليقود الناس نحو تحقيق السعادة فى الحياتين الدنيا والآخرة على السواء .

والمسلمون جميعا متفقون على أن الايمان بالله يأتى من الايمان بالأنبياء ولم يكن فى ميسورنا أن نؤمن بالأنبياء أو بآيات كتاب منزل لو لم يسبق هذا الايمان ثقة النفس الانسانية بوجود الله وبارساله الأنبياء لحمل هدايته الى الناس .

ومن هنا فان أول واجبات الانسان أن يتدبر ظواهر الطبيعة وأن يتأمل فيها لكى ينتهى الى الايقان بوجود الله . ومن هذا المبدأ الرئيسى ينطلق الايمان بالأنبياء وبالكتب المنزلة .

ان معجزة الاسلام الكبرى هى القرآن ، وهو كتاب كريم لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل هو تنزيل من حكيم حميد . وقد تحدى النبى العرب أن يأتوا بسورة ، بل بآية من مثله ، فلم يستطيعوا ، ووقفوا مبهورين أمام محكم آياته . ثم أيقنوا فى قرارةأنفسهم أن هذا الكتاب المعجز لا يمكن أنيكون من عمل محمد وهو العربى الأمى الذ ىلم يكن قبل ذلك يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه ، ولكن فريقا منهم كان يكابر ويماكس وهو يعلم أنه فى ضلال مبين . ولم يروا بدا أمام عجزهم التام ــ وهم أساطين البلاغة وأرباب اللسن والبيان ــ عنالاتيان بمثله ، من أن يمتشقوا الحسام ويقاتلوا النبى ، محاولين أن يقضوا على الدعوة السامية وعلى صاحبها .

ونحن نقرأ فى هـذا الكتاب العظيم ـ الى جانب اعجازه التام ـ تنبؤا ببعض أحداث المستقبل ، ووصفا لوقائع حدثت منذ قرون ولكنها كانت مجهولة على وجه العموم . وفيه كذلك اشارات كثيرة الى نواميس الطبيعة والى علوم مختلفة دينيـة ودنيوية . وكلما سار العلم قدما فى مدارج الرقى والتقدم وقع العلماء على الكثير من الأسرار القرآنية .

ولعل من أخص خصائص القرآن أن نصه ظل صـافيا لم تمسسه يد التحريف عبر هذه القرون الطوال التى تراخت ما بين تنزيله ويومنا هذا ، بخلاف بعض الكتب السماوية التى عملت فيها يد التبديل والتحريف . وسوف يظل نص القرآن على حاله تلك من الصفاء والسـلامة باذن الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وفى كتاب المسلمين خصيصة أخرى واضحة وهى أنه يتلى كل يوم ، بل كل ساعة فى طول العالم الاسلامى وعرضه ولايقع فى القارىء أو السامع ذرة من الملل ، بل على العكس ان المؤمنين يزدادون حبا له واقبالا عليه كلما أكثروا من تلاوته يوما بعـد يوم . ولعلنا نحس أنه يوقع فى نفس من يتلوه أو يصغى اليـه الشعور العميق بالمهابة والخشية .

على أن المرء لايجد عسرا أو مشقة فى استظهاره ، حتى اننا لنجد اليوم آلافا من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب. وفى الجمهورية العربية وحدها عدد من حفاظ القرآن أكثر من عدد حفظة الأناجيل فى أوربا كلها .

ان انتشار الاسلام السريع لم يتم عن طريق القوة ، ولا بجهود المبشرين الموصولة . ولكنه تم لأصالته واستقامة مبادئه ومواءمتها للعقل المستقيم والفطرة السليمة . هذا الى أنه دين واقعي لايحرم معتنقيه الطيبات التى أحلها الله . يضاف الى ذلك أمر هام جدا هو أن الاسلام دين يتسم بالبساطة فى جوهره وفى مظهره .. فهو دين يسر لا عسر . وقد جاء فى الأثر : ما خير النبى بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما ؟ ، وقال الرسول الكريم : « يسروا ولا تعسروا » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه » . وهو دين ليس فيه تزمت ولا تحرج ولا طبقيــة ولا استعلاء .. وفى ذلك يقول الله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » . ولعل من أبرز مظاهر بساطته أنه دين لايشغل معتنقه عن دنياه ، بل انه يأمره بأن يأخذ نصيبه من الدنيــا وهو يعمل للآخرة .. يقول الله تعــالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيــا » ، ويقول النبى صلى الله عليــه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ومن بساطة الاسلام أنه دين ليس فيه رهبانية ، وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لارهبانية فى الاســلام » ، وهو بذلك لايجافى ناموس الطبيعة البشرية .

وللاسلام عقيدتان أساسيتان آثرنا اليهما في تناول المقال هما : وحدانية الله ورسالة محمد . وحول هاتين العقيدتين عقائد أخرى تنبثق منهما ، استقرت في نفوس المسلمين بعد قرون من الدراسة والمناقشة ليس من طبيعتها بأية حال من الأحوال أن تعوق العلم الحديث أو تعارض الحقائق الفلسفية .

ذلك أن الاسلام لايضع أى حد أمام قوى العقل البشرى ، ولكنه يتركها طليقة تتخذ السبيل الذى تريد .. ففيما يتصل بخلق الكون وأصله يقول الله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون » . وفيما يتصل بالنواميس الطبيعية يقتصر القرآن على النص على أن قد سن بعض النواميس التى تسير الخليقة والتى لا تتغير .

وبينما نجد جميع الأديان الأخرى تقدم الى أبنائها حملا ثقيلا من العقائد التى تثقل كواهلهم وتنوء بها أفهامهم — نرى الاسلام ذا سهولة وبساطة نقية كالبلور .. مما كان سببا فى انتشاره السريع ابان الفتوح الأولى بين أناس غرقوا فى اضطراب روحى عميق بسبب الغموض الذى كان يكتنف بعض معتقداتهم الدينية . وهذه السهولة البالغة وتلك البساطة المتناهية اللتان يتصف بهما الاسلام هما السبب أيضا فى انتشاره الموصول اليوم بين الشعوب غير المتحضرة فى آسيا وافريقية ، لأن الاسلام قادر على النفاذ الى أعماق نفوسهم من غير ما لجوء الى شروح مطولة أو عظات معقدة .

الإسلامُ دينُ السّعيِ والعمل

يتهم الشانئون والمربصون بالاســلام ديننا العظيم القوى بأنه يحبب الناس الى الزهد ، ويحمل على الدنيا ومتاعها ، ويعيب السعى فيهــا والتكاثر منها . وهو فى نظــرهم ــ قاتلهم الله ــ لايصلح أن يكون دين هذا العصر الحديث الذى خطت فيه المدنية خطوات حثيثة ، ولم تسعها رحاب الأرض فيممت بأبصارها شطر السماء .

وهم بذلك يجهلون كل الجهل رسالة الاسلام السامية ، فقد جاء بتعاليمه السمحةليخرج الناس من الظلمات الى النور ويهديهم سواء السبيل ، فصحح العقائد ، وقوم الأخلاق ، وأصلحالعادات، ونظم أصول الحكم ، ورسم الخطــة لبناء المجتمع السليم الذى تتكافأ فيه الفرص وتتضافر الجهود لخير الجميع ، فامتد سلطانه فى الشرق والغرب ، وانتشر أتبــاعه فى كل مكان يحملون مشعل هدايته الى بقاع الأرض .. يبنون ويعمرون ، ويعلمون ويؤدبون، فى حركة دائبة وسعى متواصل ونشاط منقطع النظير .. شعارهم فى ذلك اصــلاح الدين والدنيا ، والتوفيق بين مطــالب الروح ومطالب الجسد ، والأخذ بيــد الناس الى ما يريد لهم الاســلام

من خير وسعادة وفلاح ، فكان من أثر ذلك تلك النهضة المثالية الخالدة التى لم تر البشرية لها مثيلا فى التاريخ .

كان هذا شأن المسلمين فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعمه فى ضلالات الجهالة وتتردى فى مهاوى التخلف والتهافت .. مجتمعات مفككة متنافرة تتحكم فيها الأهواء ، وتتسلط على عقولها الأوهام والأباطيل ، ويسومها الخسف وسوء الهوان حكام دكتاتوريون عاشوا لأنفسهم ولرغائبهم ليس غير ، فاستعبدوا الناس ، وأماتوا فيهم مثل الخير .

ولم تقف السلطة الروحية فى تلك العصور (العصور الوسطى) ضد هذه الأوضاع الظالمة ، بل زوت الناس عن الدنيا وحرمت عليهم كل نشاط يرمى الى تعميرها والنهوض بها ، وأعلنت فيهم أن الغنى لايدخل ملكوت السموات . فحبست الناس فى سجن مظلم من الأفكار الخاطئة والتعاليم الجائرة ، واعتبرت كل من يتذمر على هذا الوضع ويفكر فى الانطلاق الى بحبوحة الحرية الواسعة فى الفكر والعمل والسعى والكفاح ــ اعتبرته آثما زنديقا ، جزاؤه الحرمان من ثواب الآخرة كما يدعون .

ولم تتحرر عقولهم من ربقة هذا التحكم وذلك الاذلال الا بعد أن اتصلوا بالمسلمين فى الأندلس ، ورأوا ما يتمتعون به من طيبات الحياة الدنيا مع اعتصامهم بحبل الدين والحفاظ على مبادئه السامية ، عاملين بقول الله تعالى فى محكم آياته : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

وقد بهرتهم تلك الحضارة الاسلامية التى شملت جميع النواحى الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية .

يضاف الى ذلك مالمسوه ابان الحملة الصليبية على البلاد الاسلامية من مظاهر النهضة فى تلك البلاد . وعوامل القوةالتى يسرت لها أن تكون صاحبة السلطان والحول والطول طوال فترة كبيرة من التاريخ .

وعلى أثر هذا كانت نهضة الغرب الذى تحرر من قيوده ، وتخلص من أوهامه ، وخرج من عزلته ، وانطلق فى نهم الىالحياة يضرب فى كل مكان ويغزو كل ميدان ، فكانت حركة الاصلاح الدينى والكشوف الجغرافيــة والمخترعات ، وكان الانتقام من السلطة الروحية التى تحكمت فى عقولهم وطاقاتهم آمادا طويلة ، فانزوت فى دائرة ضيقة بعيده عن رحاب السلطة الزمنية الواسعة.

وجاء الغرب بعد ذلك بقوته وعتاده وأفكاره ليثأر من الشرق الذى علمه وألهمه ، فتنافست دوله فى تمزيق أوصال الأمة الاسلامية ووضعت أيديها على أراضيها التى تزخر بأنواع الخير والثروة والنعيم .

وظل المسلمون ردحا من الزمان يتحكم فيهم الأجانب ويستنزفون ثرواتهم ، ضاربين حولهم سياجا كثيفا ، حتى لاتعشو أبصارهم الى ضوء الاصلاح والجد والعمل .

وفى غمرة هـذا البؤس وهت صلة المسلمين بدينهم . وخيم الجهل على عقولهم ، ورانت على أحـلامهم مبادىء لا تمت الى الدين بصلة ولا تتفق والمنطق السليم .

وقد تولى كبر ذلك بعض الجهال الذين اندسوا بين العامه يحببون اليهم الرضا بالدون من العيش ، ويزينون لهم القنـاعة والزهد والاستسلام والتواكل فكان ذلك سببا فى أن طـال أمد الاستعمار ، وفى تثبيت أقدام المستعمرين الطغاة الذين نزحوا الى بلاد المسلمين ، فملكوا زمام الثروة فيها واستغلوا كل ما فيهامن مواد أولية ، يصنعونها ثم يبيعونها لنا بأثمان باهظة ، مكافأة لنا على قناعتنا بفتات المائدة ورضانا بهذا الوضع الذليل .

وقد فطنت الشعوب الشرقية والاسلامية أخيرا الى هـذه الحقيقة فقاموا بهذه الانتفاضات الثائرة التى حطموا بهـا القيود وكسروا الأغلال واستردوا حقوقهم المسلوبة . وبدت بها بـسـائر نهضة جديدة شاملة لجميع النواحى ، استعدادا لاستقبال عهـد جديد مشرق ؛ ترفرف عليه أعلام الحرية ، ويشيع بين جنبـاته الرخاء .

وقد كان هم المستعمرين الأكبر أن يخدروا أعصاب المسلمين ويمدحوهم بصفات مغرية يطرب لها الجهلاء ، وهى فى حقيقتهـا سخرية واستهزاء ، والدين براء منها .. كأن يصفوهم بأنهم قوم قانعون ، يرضون بالقليل ، ويحمدون الله عليه ، لاتهمهم الدنيا ،

ولا يحرصون على المادة ، يعنون بالروح كل العناية ، وينصرفون الى العبادة ، وينفقون معظم أوقاتهم فى لزوم المساجد .

وكانت هذه الكلمات تفعل فى نفوس السذج والبسطاء فعل السحر ؛ فيركنون الى الكسل ، ويحرصون على أن يكونوا فى هذهالمعانى موضع اعجاب المستعمرين ، ويتركون الدنياوخيراتها نهبا لهؤلاء الذئاب من الأفافين الذين وفدوا على البلاد مشردين جائعين .. فاذا بهذه لجاليات بعــد قليل من الزمن تملك الثروة والجاه والسلطان . ولا تكتفى بذلك ، بل تنشىء المواخير وأماكن الفجور بغبة اماتة الشعور الوطنى وافساد أخلاق الشباب وصرفه عن التفكير فى مصيره .

وقــد ساعد على ذلك جهل النــاس بالدين فى ذلك الزمان وسوء فهمهم لمبادئه وأهدافه .

وفى غمرة هذا الجهل ســادت بينهم فكرة لاتمت الى الدين بصلة ، وهى فكرة التوكل على الله بمعنى غير معنــاه الصحيح ، ناسين قول النبى الكريم لصاحب الناقة حين سأله : أأعقل ناقتى با رسول الله أم أتوكل على الله ؟ فقال الرسول : اعقلها وتوكل على الله .

وكانوا يبررون معتقدهم هــذا بفهم خاطىء لنصوص من القرآن والحديث تبدو فى ظاهرها للجاهل كأنها تدعو الى هذا التوكل الكاذب ، من مثل قوله : « وما من دابة فى الأرض الا على

الله رزقها » وقوله تعالى : « وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو لرزاق ذو القوة المتين » . وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا » ، وقوله عليه السلام : « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » .

وتستهويهم آيات الزهد ، وأحاديث ذم الدنيا ، والشعر الذي يدور حول هذا الغرض ويحمل ذلك الطابع ، والذى أجاد حفظه وانشاده المنسولون والمتواكلون .

وكانت الخطب المنبرية التى وضعت فى ذلك العهد المظلم صورة معبرة تنعكس على مرآتها أفكار المسلمين فى فترة الضعف والجهل ، وتصور الاتجاه العام والمصير الذى استولى على جانب كبير من أفكارهم .

فهم المسلمون آنذاك هذا الفهم الخاطىء للدين . ونسوا التفسير الصحيح لهذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، وعزب عنهم المراد السامى منها ، ومالت نفوسهم الى تلمس الأدلة المبتورة والمعانى السطحية التى توافق مزاعمهم الباطلة .

ثم أذن الله للمسلمين أن تنجاب عن أبصارهم هذه الغشاوة، وأن يفهموا الى حد كبير مبادىء دينهم العظيم ، فهبوا من سباتهم يستنقذون أوطانهم من أيدى المستعمرين الطغام ، مستهدين

بهدى الاسلام الذى يأبى للمسلم أن يستذله غيره كائنا من كان « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، والذى يفرض عليه الجهاد لحماية الوطن وتخليص الحقوق من الغاصبين واشاعة السلام بين الناس وتأمين حرياتهم . وآيات القرآن وأحاديث الرسول عليه السلام فى هذا المعنى كثيرة . وكلها تطلب الى المسلم أن يقف فى جميع الظروف عزيزا شامخا ، لايستكين ، بل يسعى ما وسعه السعى لكى يستخلص حقوقه ، ولو بذل فى سبيل ذلك حياته . ويعجبنى فى هذا المقام ماذكره ابن هشام فى السيرة النبوية من أن النبى عليه الصلاة والسلام أراد أن يدفع عن أهل لمدينة خطر الأحزاب فى غزوة الخندق باعطائهم ثلث تمر المدينة على أن يرجعوا ولما استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فى ذلك قالا له : هل هذا أمر من الله أم رأى رأيته ، فقال : بل رأى رأيته لأكسر عنكم شوكتهم، وقال سعد بن معاذ : يارسول الله ، قدكنا وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى « أى ضيافة » أو بيعا . أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة ، لانعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم » [1] .

هذا موقف من مواقف المسلمين ينم على العزة ، والأنفة ، وعدم التخاذل والاستكانة . وبذل النفس والنفيس لحماية الوطن مهما يكلفهم ذلك .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٠١ طبعة اوربا .

وان من يتدبر تعاليم الاسلام يدرك فى غير عسر أنه دين ودنيا ، وقد أفصح النبى الكريم عن ذلك فقال : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

والله تعالى يأمرنا بالعمل والسعى فى الأرض طلبا للرزق الحلال ، يقول جل شأنه : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » ، ويقول سبحانه : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » ، ويقول جل وعلا : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ، ويقول تبارك وتعالى : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله » .

وتفيد هذه الآيات أن فى جميع جنبات الأرض متسعا للعباد، وأن الرزق موجود فى كل مكان ، فى السموات وفى الأرض ، فى البر وفى البحر ، وأن الله جعل كل شىء مسخرا لخدمتك ، ولم يقصر نشاطك على ميدان خاص ، ولم يحبسك فى دائرة ضيقة لاتسع طموحك وآمالك وفكرك وكفاحك ، وهو لايرضى لك القصور والعجز ، ولا يحب منك أن تكون قادرا على الكمال ثم تحجم وتقعد ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز » .

هذا هو الميدان الواسع الذى جعله الله مسرحا لنشاطك، فاضرب فى جنبات الأرض ، وجل بقوتك وفكرك وجميع طاقاتك

فى هذه الرحاب الواسعة وافهم حكمة الله فى اطلاقه حين أمرك بالعمل حيث يقول : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وقد وردت آيات عبر فيها القرآن عن العمل بصيغة التنكير، مما يدل على عمومه واطلاقه كقوله تعالى:« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض»

كما وردت آيات لم يحدد فيها نوع العمل ، ولم يبين مجاله، ولم يوصف الا بأنه « صالح » وكفى ، كقوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » .والعمل الصالح هو ما استحسنته العقول السليمة ووافقت عليه الشريعة فمجال العمل واسع وميادينه متعددة .. ألا فليعمل العاملون .

وليس المراد بالعمل ــ كما ترى ــ نوعا معينا ، ولا ناحية خاصة منه ، بل المراد به كل نشاط فكرى أو بدنى ، زراعى أو صناعى أو تجارى ، أو ماشاكل ذلك من كل ماتحتاج اليه المجموعة البشرية ، على شريطة أن يكون هذا النشاط مشروعا ، يقصد منه الخير للفرد والمجتمع ، ويسير فى الطريق الذى رسمه الدين .

والاسلام يريد من المسلم أن يكون عضوا عاملا فى الجماعة الانسانية ، ويحتم عليه أن يكون فى حياته ايجابيا ، يندمج فى البيئة ليفيد ويستفيد ، ويكره السلبية المتخاذلة والانكماش

والانزواء عن معترك الحياة .. والنصوص فى ذلك كثيرة فى كتاب الله وأحاديث الرسول وأقوال كثير من الصحابة .

والله تعالى لايرضيه من العبد أن ينقطع للعبادة والتبتل ، فلا رهبانية فى الاسلام ، بل أمره أن ينتشر فى الأرض لطلب الرزق اذا فرغ من صلاته. يقول جل شأنه : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » . وذهب جماعة الى الرسول الكريم وقالوا له : يارسول الله ، ان فلانا يقوم الليل تهجدا والنهار تعبدا ، فقال عليه السلام : ومن يكفيه أمره ؟ فقالوا : أينا يكفيه أمره ، فقال : « أيكم خير منه » .

ويأمر الله تعالى نبيه بأن يجد فى تحصيل عيشه بعد أن يفرغ من العبادة فيقول : « فاذا فرغت فانصب » أى اتعب واكدح فى سبيل الرزق . وكان فى قدرة الله أن يحوطه بمطارف النعمة والعيش الرغيد ، ولكنه جعل رسوله ــ عليه السلام ــ أسوة حسنة لأمته .

ويقول نبى الاسلام : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » . ويقول عليه السلام : « على كل مسلم صدقة ، فقيل له : أرأيت ن لم يجد ؟ فقال : يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » . ويذكر لنا أن الله سيحاسب الانسان على صحته وعمره وماله وعلمه ، كيف استغل ذلك فى حياته ، فيقول : لاتزول قدما عبد حتى يسال

عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ » .

ويدعو الرسول المسلمين الى العمل بالتجارة ويحببها اليهم فيقول : «تسعة أعشار الرزق فى التجارة » . كما يبين للصحابة أن رزقه ليس أمرا مفروضا على الناس يأتيه وهو قاعد مستريح ، بل ان رزقه هو نتيجة كفاحه وسعيه وجهاده ، فيقول : « جعل الله رزقى تحت ظل رمحى » . ويروى أنه رأى رجلا قد ورمت يده من كثرة العمل فقال : «هذه يد يحبها الله ورسوله » .

ويتضح اهتمام النبى بالعمل كضريبة لابد أن يؤديها الفرد للجماعة فى أنه كان على سفر مع بعض الصحابة فأدركهم الجوع ، فأسهم كل فرد بنوع من العمل فى تهيئة الشاه للأكل . ولم يشأ ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يجلس دون أن يشاركهم فى ذلك ، فتعهد بجمع الحطب لانضاج الطعام .

أفبعد هذا دليل على نظرة الاسلام الى قيمة العمل وأثره فى خير الأمة ؟ ويرى النبى الكريم أن العمل يحفظ ماء الوجه من أن يراق فى ذل السؤال فيقول : لأن يأخــذ أحدكم حبله ، فيــأتى بحزمة الحطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

ويبين أن الشرف والمروءة تأبيان على المسلم ــ ودينه دين العزة ــ أن يكون فى وضع أدنى من غيره ، مادام يستطيع أن يعلو

بقدره ، فيقول : اليد العليا خير من اليد السفلى »أى المعطى خير من الآخذ .

والنبى ينفر الناس من الاستجداء ويكرهه اليهم فيقول : من فتح على نفسه بابا من المسألة فتح الله عليه سبعين بابا من الفقر » . ويقول : لاتزال المسألة بالعبد حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم » .

ويحارب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ التسول ، فيعزر المتسولين ويصادر ماجمعوه ، وينفقه فى المصالح العامة للدولة .. جاءه سائل مرة فأمر أحد المسلمبن أن يطعمه ، ثم جاءه مرة ثانية فوجده يحمل كيسا مملوءا بالطعام ، فضربه بالدرة ونثر كيسه أمام خيل الصدقة المحبوسة للجهاد فى سبيل الله (١) . وذلك لأن ما فيه هو من أموال المسلين عامة ، أخذه بغير حق،فيرد اليهم باتفاقه فى مرفق عام هو ملك لهم جميعا .

والاسلام حين يحث على العمل ويرغب فيه ينهى ـ كما قلنا ـ عن الكسل والعجز والتخاذل ، ويستعيذ من ذلك ، فهو لا يليق بالمسلم الذى اتندبه لأكرم رسالة فى الوجود .. فقد دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم المسجد ، فوجد أبا أمامة جالسا فيه فى غير وقت الصلاة ، فلما سأله عن السبب قال له : ديون لزمتنى وهموم لحقتنى ، فأفهمه النبى أن الجلوس

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٠٨ .

فى المسجد والركون الى الكسل ليسا وسيلة يمكن بهما قضاء الدين وتفريج الهم ، وأمره بالسعى والعمل ، ولكن بطريقة لبقة حكيمة لايعقلها الا العالمون .. فقد أمره بأن يستعيذ بالله من الهم والحزن ، ومن العجز والكسل . والرسول الكريم لايستعيذ ولا يأمر بالاستعاذة من شيء الا اذا كان مذموما مكروها يأباه الدين ولا يرضى عنه الله ، فكأنه يقول له : نزه نفسك عن العجز والكسل ، وذلك لا يكون الا بالسعى والعمل ، وما دامت النية خالصة والطريق مشروعة فالله يعين العبد وييسر له السبيل حتى يصل الى ما يريد ... يقول أبو أمامة : علمنى الرسول هذا الدعاء أدعو به كل صباح ومساء : « اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال (١) » فعمل أبو أمامة بما أمره رسول الله ، حتى يسر الله له الأمر ، فسدد دينه وفرج همه فى زمن قريب .

وكلنا نعرف قولة عمر المشهورة « لايقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » .

ولم يكتف الاسلام بحمل الناس على العمل فحسب ، ولكنه أمر أن يكون سعيهم الى الخير سعيا حثيثا فى همة ونشاط وصبر

---

(١) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين للخضرى ص ٢١٩ .

ومصابرة وانتهاز للفرص . ولعل هذا هو ما يشير اليه قول الله تعالى : « يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » . والكدح هو المبالغة فى العمل وبذل الجهد فيه .

ومن النشاط المحمود المبكور واغتنام الساعات الأولى من النهار فى العمل ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «باكروا الغدو (أى الصباح) فى طلب الرزق ، فان الغدو بركة ونجاح» ،ويقول: « اللهم بارك لأمتى فى بكورها » .

وكان الرسول ومن سبقه من الرسل يعملون ويسعون فى سبيل أرزاقهم . ويحدثنا القرآن الكريم أن الله سبحانه علم داود ـ عليه السلام ـ صناعة الدروع السابغات ، وألان له الحديد . وأن نوحا ـ عليه السلام ـ كان نجارا ، صنع الفلك وسخر منه قومه كلما مروا به ، وأن موسى ـ عليه السلام ـ كان يرعى الغنم فى مدين للشيخ الكبير « شعيب » ليقوت نفسه ويحصن فرجه

وتحدثنا السنة الصحيحة أن زكريا كان نجارا ، وأن جميع الأنبياء رعوا الغنم وقد ورد فى ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله نبيا ولا أرسل رسولا الا رعى الغنم ،فقيل له : حتى أنت يا رسول الله ؟ قال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » .

وكان الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ يجدون فى طلب الرزق .. فقد كان أبو بكر الصديق بزازا « تاجر أقمشة » .

ويذكرون أنه خرج صبيحة بيعته بالخلافة حاملا على كتفه أثوابا الى السوق ، فاعترضه عمر بن الخطاب وبعض الصحابة وسألوه أن يضرب عن التجارة ليتفرغ لأمور الخلافة ومصالح المسلمين . فقال لهم : ومما أنفق على أهلى ؟ انى ان أضعتهم فأنا للمسلمين أضيع » ، ففرضوا له فى بيت المال ما يغنيه عن التجارة ويكفى أهله ليتفرغ لمهام منصبه الجديد (١) .

وكان عمر دلالا ، يسعى بين البائع والمشترى . وكان يقول : ما من يوم يأتينى فيه الموت أحب الى من يوم أتسوق فيه لأهلى ، أبيع وأشترى (٢) » .

وكان عثمان بن عفان تاجرا ناجحا فى تجارته ، وهو الذى مون جيش العسرة ــ كما نعرف ــ من أمواله الموفورة التى جلبها من التجارة .

ويروى ابن عباس أن عليا كان يمنح ليهودى ، كل دلو بتمرة . وكان سعد بن أبى وقاص يبرى النبل . وكان عمرو بن العاص جزارا (٣) . كما كان عبد الرحمن بن عوف صاحب ثروة ضخمة أدرتها عليه التجارة .

وهكذا كان جميع الصحابة والتابعين وكبار المسلمين يعملون ولا يأنفون من العمل ما دام شريفا . وتستطيع أن تلتمس الكثير

(١) احسن التقاسيم للمقدسى ص ١٨٦ .
(٢) كتاب التاج المنسوب للجاحظ ص ١١٧ .
(٣) بصائر القدماء وسرائر الحكماء ص ١١٤ .

من ذلك فى كتاب « بصائر القدماء وسرائر الحكماء » . فقد ورد فيه صناعات ومهن كثير من مشهورى لرجال فى الاسلام .

ولا يظنن ظان أن المهاجرين نزلوا المدينة كلاجئين ينتظرون معونة الأنصار ويعيشون كلا عليهم . ولا يفهمن أحد أن مقاسمتهم الأنصار فى أموالهم كانت منحة تعطى بدون مقابل ، فقد كان ذلك نظير عمل يؤديه لمهاجرون للانصار . يقول أنس بن مالك رضى الله عنه : لما قدم المهاجرون من مكة الى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء ، فكانت الأنصار أهل الأرض والعقار ، فقاسمهم المهاجرون على أن يعطوهم نصف ثمار أموالهم كل عام ويكفوهم العمل والمؤونة (1) » .

وبعد فانى لارى ــ اجزالا للفائدة ــ أن أتناول مسألة الزهد فى الدنيا ، حتى يعرف الناس حقيقة أمرها وموقف الدين السليم منها فأقول :

وردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية وآثار عن سلف الأمة وأقوال للحكماء تذم الدنيا ، وتهون من شأنها ، وتدعو الى الزهد فيها ، وتحذر من التهالك عليها . وهى كثيرة مشهورة ، يحفظها ويطرب لها كثير من الناس الذين فهموها على غير وجهها الصحيح.

والواقع أن الزهد فى الدنيا كما يريده الاسلام الحق الذى نزل على محمد بن عبد الله ليس أن تتركها وتعيش فقيرا معدما ،

---

(1) سيرة ابن هشام ٢١/٣ .

أو سائلا متطفلا ، ولكنه عدم الاقبال عليها اقبـالا يشغلك عن واجبك نحو دينك ونحو وطنك ، بمعنى ألا يتملك حبها قلبك امتلاكا ، فتنخدع بزخارفها ولذائذها . وفى ذلك يقول النبى عليه السلام : « تعس عبد الدينار والدرهم » .

والزهد بهـذا المعنى لا ينافيه أن تكون عظيم الثروة وافر المال مادمت عارفا لحق الله فتصل الرحم ، وتعين الفقير ، وتنفق فى وجوه البر ، ولا يشغلك المال عن طاعة الله . وهذا مايفيدهقول النبى الكريم : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » .

فجمع المال والابتغاء من فضل الله أمر مشروع ، لأن المـال هو عصب الحياة وعماد النهضات .

وقد فهم الصحابة وسلف الأمة قدر المال وما تعنيه الآيات والأحاديث الواردة بشـأنه ، فجمعوه من حله وأنفقوه فى حله ، وملكوا الثروات الطائلة ، ونعموا بطيبات الدنيا فى غير معصية ولهو عن طاعة الله ، وكان لـكبار أغنيـائهم مواقف مشرفة فى الأزمات الشـديدة ، تشهد بفضل الله فى نعمة المـال ، وبتوفيق أصحابه الى استغلاله فيما يفيد .

وقد كان أبو بكر من كبار الأغنيـاء فأنفق أكثر أمواله فى سبيل الدعوة الاسلامية ، وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليـه وسـلم : « رحم الله أبا بكر ، زوجنى ابنتـه ، وحملنى الى دار الهجرة ، وأعتق بلالا من ماله ، وما نفعنى مال أحد قط كمانفعنى

مال أبي بكر » . ولم يبق هذا الصحابى العظيم لنفسه مدخرا فأنفق ما بقى منه حين أمر الرسول بالصدقة ، ولما سأله النبى : ماذا أبقيت لعيالك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله » .

وصنيع عثمان بن عفان مع جيش العسرة مشهور . فقد تبرع له من ماله بعشرة آلاف دينار ، صبها بين يدى الرسول ، ونحو ملائتى بعير بأحمالها التموينية : فتهلل وجه النبى بشرا عندما رأى هذه النفوس الخيرة المؤمنة التى لم تلهها الدنيا عن تلبية نداء الجهاد ودعوة البر . وقال : ما ضر عثمان ما يفعل بعد هذا اليوم ، غفر الله لك ياعثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن الى يوم القيامة » .

وكان لعثمان تجارة عظيمة فى الشام فى عام القحط الذى أصاب المدينة فى خلافة أبى بكر ، فأسرع التجار فى مساومته عليها قبل أن تصل الى المدينة ، وكانوا يترددون عليه مربحين ، ولكنه أبى وقال : « هناك من زادنى » ، ولما يئسوا من معرفة التاجر الذى يزحمهم فى هذه المساومة تلا عليهم عثمان قول الله تعالى « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء » ؛ ثم قال : يا أبا بكر ، تجارتى تحت يدك ، وزعها على الفقراء والمساكين »

والصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف لم ترض نفسه الأبية أن يعيش كلا على سعد بن الربيع عندما آخى النبى بينهما بعد الهجرة ، بل خرج الى السوق فجد ونشط فى التجارة حتى

أقبلت عليه لدنيا اقبالا عظيما وانثالت عليه الأموال انثيالا ، ولم يلهه ذلك عن واجبه نحو ربه وآمته ؛ فلبى نداء البر ودعوة الخير، وتصدق بأربعة آلاف درهم وأمسك لنفسه مثلها ، فقال له النبي: « بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت » . وتوفى ــ رحمه الله ــ وقد ترك أموالا طائلة ، أوصى منها بخمسين ألف دينــار وبألف فرس فى سبيل الله ، وأوصى لكل واحد ممن بقى من البــدريين اذ ذاك ــ وكانوا مائة ــ بأربعمائة دينار .

فماذا تقول أيها الأخ المسلم فى هؤلاء الرجال العظام الذين كانوا يفهمون دينهم الفهم الصحيح ؟ لم تشغلهم الأموال عن أداء واجبهم نحوه ونحو اخوانهم فى الله . ولم يتكالبوا على الدنيا ، ولم يزوروا عنها ، بل جمعوا بين الحسنيين .

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا

وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

فالزهد ليس مقياسه الفقر ؛ فقد يكون الرجل فقيرا ، لكنه حريص ، شره ، جاد فى طلب الدنيا ، وان لم ينل منها ما يريد . وقد يكون غنيا وهو زاهد فيها ، كأبى بكر وعثمان وابن عوف وغيرهم ممن عــرفوا حق الله فى أموالهم ، فأنفقــوها فى وجوه الخير والبر .

فاطلب الخيــر يا أخى لنفسك ولأمتك بسعيك وجــدك ، ولا تستمرىء الكسل والتقاعد ، فالعمل والنشاط يجلبان لبدنك

نعمة الصحة ، ولعقلك الحدة والفطنة..ولله در أحد حكماء العرب الأقدمين حين قال : مايسرني أني مكفى الرزق فى الدنيا . فقيل له: ولم ؟ فقال : لأنى أكره عادة العجز .

وانى لأختم كلامى بقولة للخليفة العظيم عمر بن الخطاب تغنى عن كل كلام فى بيان قيمة العمل للانسان ، يقول ــ رضى الله عنه ــ : « انى ليعجبنى الرجل منكم ، فاذا قلت : أله صنعة ؟ فقالوا : لا ، سقط من عينى » .

عالمية الاسلام

الاسلام دعوة عامة ، ونبى الاسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أرسل للناس كافة ، والقرآن الكريم يدعو الجميع الى اعتناق الاسلام .

ولهذا يختلف الاسلام عن سائر الأديان فى أنه دعوة للناس جميعا ودين عام للبشرية ، وليس كغيره دعوة خاصة لقوم بعينهم .

وقد أرسل الله محمدا للناس كافة ، بخلاف بقية الرسل .. فسيدنا موسى عليه السلام أرسل الى فرعون وقومه « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملأه » ، وكانت دعوته الى قومه فقط « واذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم » « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا » ، « فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم » .

وسيدنا عيسى عليه السلام أرسل الى بنى اسرائيل « واذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم » ،

« ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وأبرىء الأكمة والأبرص ، وأحيى الموتى باذن‌الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم » . ولذلك كان من آمن به طائفة من بنى اسرائيل فقط « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى الى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله ، فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة » .

ومن قبل ذلك أرسل الله الرسل الآخرين أيضا الى أقوامهم « وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه » ، « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله » ، « والى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله » ، « والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله » ، « والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله » .

وكل أمة أو قوم كان لهم رسولهم كما تقرر الآية الكريمة « ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث ، فبعدا لقوم لا يؤمنون » .

أما نبى الاسلام وخاتم الرسل والأنبياء فهو الرسول الذى أرسل للناس كافة وللعالمين بشيرا ونذيرا « قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » .

ويدعو الله سبحانه وتعالى الناس جميعا ليعلن بهم أن القرآن الكريم انما نزل هداية للناس « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ، وأنه برهان من الله سبحانه — « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا اليكم نورا مبينا » .

وقد تكرر لفظ « الناس » في القرآن الكريم أكثر من مائتين وأربعين مرة . وذكر لفظ « الانسان » فيه خمسا وستين مرة ، بينما لم يتكرر لفظ « المسلمين » أكثر من ستين وأربعين مرة الأمر الذي يؤكد أن القرآن انما هو دعوة للناس جميعا .

والقرآن في دعوته يخاطب عباده جميعا ، ولم يخص بها المسلمين أو العرب ، بل جعلها دعوة عامة للناس كافة « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » . « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » .

ويقرر القرآن الكريم أن الناس جميعا متساوون في ...
« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

كما أمر الناس جميعا بالتمتع بالطيب الحلال من الرزق « يا أيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان » .

وقد نزلت في القرآن المفرد سورة باسم « الناس » تتكرر فيها الآيات بأن الله سبحانه وتعالى هو رب الناس جميعا « قل أعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس » .

وهل هناك نداء أشمل في دعوته من دعوة القرآن الكريم عندما ينادي « يا أيها الناس » انها دعوة تدل على العمومية الكاملة الشاملة للجنس البشري .

وفي القرآن الكريم نداء آخر يماثل نداء « يا أيها الناس » في شموله وعموميته . اذ يجمع كافة البشر أجمعين .. هذا النداء هو « يابني آدم » وهذا يدل مرة أخرى على أن نؤكد أن الدعوة الاسلامية هي دعوة عامة . وان نبي الاسلام أرسل للناس كافة . فعند الدعوة الى مجاهدة الشيطان ينادي القرآن بني آدم جميعا « يابني آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما » . وعند المطالبة بالاستجابة الى الرسل ـ وقد جاءوا بآيات الله ـ يدعو كذلك كافة بني آدم « يابني آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وكذلك الشأن عندما يقصد الناس المساجد للعبادة « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

ومما يدل على عمومية الدعوة الاسلامية أنها لم تخاطب الشعور والاحساس ، ولكنها خاطبت العقل والعقلاء . وهذا يدل

على اتساع رقعتها وشمولها الناس جميعا ، لأن العقل مشترك بين الناس جميعا . والآيات الكريمة التى تشير الى ذلك كثيرة ، كقوله « اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » ، وقوله « وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » ، وقوله « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . وهكذا يتردد لفظ « العقل » فى القرآن الكريم تسعا وأربعين مرة ، كما تردد لفظ « أولى الألباب » — وهم العقلاء — فى ست عشرة آية ، كقوله « وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » وقوله ، « فاتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون » وقوله « انما يتذكر أولو الألباب » .

ولعل من أقوى الأدلة على أن الاسلام جاء للناس جميعا أن القرآن الكريم لم يقصر ما جاء به من أدلة على ما هو صالح لقوم دون آخرين ، ولكنه أورد الأدلة العامة التى يستطيع كل انسان أينما كان أن يدرسها ويتدبرها ويتسرب الايمان عن طريقها الى قلبه ، كقوله تعالى « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

فهذه المخلوقات التى عرضتها الآية الكريمة لا يراها العربى فقط . وانما تقع عليها أبصار الناس جميعا . من مثل اختلاف الليل والنهار . والفلك التى تجرى فى البحر . والماء الذى ينزل من السماء فيحيى موات الأرض .

وكذلك الشأن فى الآيات التى توجه نظرنا الى الثمار وينعها ونضجها كقوله جل شأنه « انظروا الى ثمره اذا أثمر . وينعه. ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . والآيات التى تصف البحر وأمواجه المصطخبة . كقوله تعالى « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج . من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض . اذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

كل ذلك لا يختص بالعرب وحدهم . وانما هو من ظواهر الطبيعة التى تقع عليها أبصار العرب وغير العرب . وقد سمعت أن أحد بحارة السفن من الانجليز سمع ــ وهو فى عرض البحر الأبيض المتوسط ابان الحرب العالمية الأخيرة ــ شيخ المرتلين المرحوم الشيخ « محمد رفعت » يرتل بصوته الساحر الخلاب الآية الأخيرة ، فلما عرف معناها اعتنق الاسلام راضيا مطمئنا ، وأقسم أنه لا يمكن لعربى عاش فى الصحراء أن يسوق مثل هذا الوصف الدقيق الرائع الذى يعجز عنه من عاش حياته كلها فى البحر .

ويلاحظ أن القرآن كثيراً ما ذكر فيه أنه مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية ، وأنه يقوم على هذه الكتب مقام الحارس المهيمن الأمين . يؤيد ما جاء فيها من حق وخير . وينفي عنها ما أضيف اليها من باطل ودخيل .

أما أن كلمة « الاسلام » أطلقت على الدين الذى بعث به كل نبى قبل محمد عليه السلام ، فذلك يشهد به ما جاء على لسان نوح عليه السلام « فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجرى الا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين » . وما جاء على لسان ابراهيم واسماعيل وهما يرفعان قواعد البيت الحرام وهما يقولان : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم » ، وما جاء على لسان يعقوب وهو يوصى بنيه بقوله : « يابنى ان الله اصطفى لكم الدين . فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » . وما جاء على ألسنة بنيه اذ قالوا : « نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحداً ونحن له مسلمون » . وما جاء على لسان موسى اذ قال لقومه : « يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » ، وما جاء على لسان الحواريين من أنصار عيسى اذ قال : « من أنصارى الى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

وأما أن القرآن مصدق لما سبقه من الكتب السماوية فذلك ما يشهد به قول الله لبنى اسرائيل : « وآمنوا بما أنزلت مصدقا

لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » ، وقوله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » . وقوله أيضا : « الله لا اله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » ، وقوله لأهل الكتب : « ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما أنزلنا مصدق لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها » . وقوله يحكى قصة نفر من الجن : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا . فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم » .

ولا يصح أن يفهم من ذلك أن التصادق بين القرآن الكريم والكتب السماوية كان مطابقة تامة بينه وبينهما ، بل انه زادعليها بما شاء الله أن يزيد وعدل بعض أحكامها واستبدل بعضها .. وليس ذلك مما يقدح فى صحة الكتب السماوية وسلامتها وأثرها فى هداية الأقوام الذين نزلت فيهم ، فكل منها جاء صالحا فى زمنه الموقوت . وجاء القرآن الحكيم كمرحلة أخيرة عامة شاملة لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ولهذا كان صالحا للبشر جميعا .

[illegible] جليل من علماء الأزهر الشريف هو المرحوم الأستاذ محمد عبد الله دراز فى آخر بحث كتبه وختم الله به حياته .. قال رحمه الله : يجب أن نفهم أن هذا وذلك لم يكن من المتأخر نقضا للمتقدم . ولا انكارا لحكم من أحكامه فى ابانه ، وانما وقوفا بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر .. مثل ذلك مثل ثلاثة من الاطباء جاء أحدهم الى الطفل فى الطور الأول من حياته فقرر قصر غذائه على اللبن . وجاء الثانى الى الطفل فى مرحلته فقرر له طعاما لبنيا وطعاما نشويا خفيفا . وجاء الثالث الى المرحلة التى بعدها فأذن له بغذاء قوى كامل . ولا ريب هاهنا أن اعترافا ضمنيا من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقا كل التوفيق فى علاج الحال التى عرضت عليه . ثم ان هناك قواعد صحية عامة فى النظافة والتدفئة ونحوها لا تختلف بلختلاف الأسنان . فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل ، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين . هكذا الشرائع السماوية كلها صدق وعدل فى جملتها وتفصيلها وكلها يصدق بعضها بعضا من ألفها الى يائها . ولكن هذا التصديق على ضربين ، تصديق للقديم مع الاذن ببقائه واستمراره وتصديق له مع ابقائه فى حدود ظروفه الماضية . ذلك أن التشريع السماوى يحتوى على نوعين من التشريعات ، تشريعات خالدة لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع . فاذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة اللاحقة بمثله ، أى أعادت مضمونه تذكيرا به وتأكيدا له .. وتشريعات

موقوته بآجال طويلة أو قصيرة ، فهذه تنتهى بانتهاء وقتها .
وتجىء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة .
وهذا ــ والله أعلم ــ هو تأويل قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » اهـ .

وقد وفق المرحوم الشيخ دراز أيما توفيق فى هذا التوضيح التمثيلى البديع . والواقع أن من يتدبر آيات الذكر الحكيم يدرك أن محمدا أرسل الى الناس من جميع الأمم والأجناس ، لا الى العرب وحدهم . وقد كانت مدرسته الأولى شاهد صدق على ذلك ، ففيها بلال الحبشى . وصهيب الرومى . وسلمان الفارسى، وفيروز الديلمى . وكان فيها من قريش أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وغيرهم ، ومن تهامة أبو ذر الغفارى ، ومن اليمن أبو هريرة وأبو موسى الأشعرى ، ومن البحرين منقذ بن حبان ، ومن الشام عروة بن معان .

وهكذا كان يجتمع اليه ويتردد على مجلسه ويتلمذ عليه كل من شرح الله صدره للاسلام ، لا فرق بين انسان وانسان ، فكلهم مسلمون . وقد كانت كتبه ورسائله ــ عليه الصلاة والسلام ــ دليلا قويا واضحا على عموم رسالته وشمول الدين الذى جاء به .. فقد كتب الى النجاشى فى الحبشة ، والى المقوقس فى مصر ، والى هرقل الروم والى كسرى فارس ، والى غير هؤلاء من ملوك وأمراء وأقيال .

على أننا اذا أمعنا النظر فى جملة الأحكام التى جاء بها القرآن كتاب الاسلام

الاسلام والحرية

لقد قدس الاسلام الحرية أعظم تقديس . وان من يتدبر تعاليمه ويتأمل محكم آياته يدرك فى غير عسر أنه يمقت الاكراه والضغط أشد مقت . ولو كان ذلك طريقا الى حمل الناس على اعتناق الاسلام نفسه . يقول الله تعالى : «لست عليهم بمسيطر». ويقول : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ويقول : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ، ويقول جل شأنه « ماعلى الرسول الا البلاغ » .

فالايمان أمن وطمأنينة ، فكيف يكون التخويف والترهيب سبيلا الى الايمان ؟ ويقول الله تعالى : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وعبادة الله وتحكيم شريعته لايأتيان على الوجه الصحيح الا بعد التحرر من الخوف والتمكين فى الأرض ، يقول العلى الكبير : « الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

ولما كان الاعتبار الانسانى لايقوم الا بحرية بأن المسئولية القانونية الكاملة الصحيحة لاتتقرر الا للاحرار . و
المسئولية اذا انتقصت الحرية . يقول الله تعالى : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » ، ويقول النبى الكريم : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وكلنا نعرف ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لواليه على مصر عمرو بن العاص فى القصة المشهورة لما سبق شاب قبطى ابنه « ابن الأكرمين » . فاعتدى ابن الوالى على الشاب المصرى شفاء لغل الهزيمة . فقال الخليفة عمر للوالى عمرو بن العاص : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

وبذلك سبق الخليفة الاسلامى العظيم بعشرات القرون مشرعى الثورة الفرنسية حينما نصوا فى المادة الأولى من اعلان حقوق الانسان : ولد الناس أحرارا ومتساوين فى الحقوق » .. ياله من سبق الى الخير وسمو فى التفكير والتشريع ! .

ولقد كان من أصول رسالة نبى الاسلام ما حكاه الله عنه فى كتابه الكريم « ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم » .

ولعل من أوضح الشواهد على أن الاسلام يقدس الحرية بأوسع معانيها أنه جعل ولاية أولى الأمر مستمدة من جماعة

المسلمين . وهى ما يعرف بالبيعة . وجعل واجب الطاعة مقابل حق الثوبة والعزل . يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

وقد جعل الاسلام الشورى — وهى من مقومات الحرية — علامة المجتمع المؤمن . وقرنها بالصلاة . يقول تعالى : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم » . وأمر الله رسوله بأن يشاور صحابته « وشاورهم فى الأمر . فاذا عزمت فتوكل على الله » .

ولا يعرف الاسلام طاعة مطلقة ولا حكما مقدسا ، يقول النبى الكريم « السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية ؛ فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» ويقول عليه السلام « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وقد افترض الاسلام حدوث الخلاف بين الحاكم والمحكوم كنتيجة حتمية للحرية التى يتمتع بها معتنقوه ، فرسم للمسلمين أقوم الحلول لذلك ، وهو تحكيم كتاب الله وسنة رسوله ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

وجعل الاسلام مقاومة الجور والظلم فريضة ، لأنهما من أشق الأمور التى تهدر الحرية ، قال تعالى : « والذين اذا أصابهم

البغى هم ينتصرون » وفى جل شأنه : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق » . وقال الرسول عليه السلام : « أفضل الجهاد عند الله كلمة حق عند سلطان جائر » . وقال سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب : « ورجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فقتله » .

وقد عقد الاسلام ميثاقا انسانيا لمكافحة العدوان والطغيان. قال تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

ولا بد أن تكون الحرية مكفولة للخصوم ، لا للانصار فقط ، فان امتحان الحرية العسير هو الصبر على ممارسة الخصوم لها . فالاسلام دين ، ولكنه لايحارب مخالفيه لمجرد صدودهم عن اعتناقه ، انما يحارب العدوان لا اختلاف الأديان. قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين » .

بقيت شبهتان قد يتخذ منهما أعداء الاسلام سهاما يصوبونها الى الحرية فى الاسلام ، وهما الرق والسيف . وهاتان الشبهتان متداخلتان ، فالرق نتيجة من نتائج الحرب ، والسيف

اذا علا العدل عنق الأمم والأفراد على السواء . وقد كثرت فيهما كتابات الباحثين . ونحن نريد فى هذا المقال أن نأخذ نصيبنا من البحث فيهما .

فأما الرق فقد عالجه الاسلام علاجا انسانيا ناجحا حافظ على كرامة الانسان . وقد كان الاسترقاق شائعة فى الأزمنة الغابرة فى كل بقاع الأرض . فى فارس والهند والصين ومصر القديمة والسودان واليونان والرومان وبلاد العرب . بل ان أرسطو ـ وهو المعلم الأول الذى ينادى بضرورة العدل بين الناس ـ يرى أن الرق أمر طبيعى ، وأن بعض الناس خلقوا ليكونوا أرقاء تحت سيطرة ساداتهم المواطنين الأثينيين .

وكان الأرقاء يباعون فى الأسواق علنا رجالا ونساء . وكان للسيد حق سجن العبد وجلده وتعذيبه : بل وقتله أحيانا . فضلا عن تسخيره فى أشق الأعمال وأحقرها . ووصل الامر فى شرائع بعض الأمم كالرومان الى حد أن قوانينها تجعل للدائن الحق فى حبس مدينه الحر واسقاط حريته اذا لم يدفع الدين المطلوب منه ، وأن يسخره فى خدمته الى أن يستوفى دينه . فيسترد المدين بذلك حريته .

وانتهت العصور القديمة والوسطى بما فيها من جهالة وبطش وقسوة وظلم ، ولكن هل استردت الانسانية كرامتها بعد ذلك ؟ كلا .. لقد ظل الرق باقيا ، ويكفى أن نعرف أن فرنسا أصدرت سنة ١٦٥٨ قانونا يبيح الرق عرف « بالقانون

الأسود » . وكانت انجلترا تبيحه كذلك . ولطلما أخذ الزنوج من أحضان أمهاتهم فى افريقيا ليكونوا أرقاء مستعبدين . وكانوا ينقلون من بلادهم الى المستعمرات النائية . وأهمها المستعمرات الأمريكية . ولا أدل على ذلك مما نراه الآن فى الدنيا الجديدة من هذا العدد الضخم من الزنوج الذين أخذ أجدادهم قهرا من أفريقيا أرقاء مستعبدين . ولا زالوا يعانون آلوانا شتى من العنت والظلم والتعدى بسبب التفرقة العنصرية .

وهكذا يستمر هذا النوع من الاسترقاق تحت ستار المدنية الحديثة فيما نراه اليوم بأعيننا فى بعض البلاد الخاضعة لسلطان الدول الغربية . وفيما هو حادث فى جنوب افريقيا على يد الأقلية البيضاء الظالمة ، وكذلك ما نراه فى « روديسيا » من تسلط أقلية أوربية ضئيلة وتحكمهم الغاشم فى سائر سكانها الأفارقة . ولا زال صدى هذا الاضطهاد يتردد فى كل بقعة من بقاع المعمورة . وقد دمغتهم هيئة الأمم المتحدة بقرارها الخطير، وهب الأحرار فى كل مكان يستنكرون أعمالهم الوحشية الوضيعة .

هذا هو شأن الدول المتمدينة ، دول القرن العشرين ، مع اخوتهم فى الآدمية والانسانية .. فتعالوا معى لنعرف موقف الاسلام العظيم من الرق والأرقاء .

ان الاسلام يمنع بتاتا النخاسة والاسترقاق بالمعنى الذى يفهمه الناس ، كما يمنع اصطياد الزنوج أو غيرهم على النحو

الذى درج عليه المسترقون قديما وحديثا . فهو لا يجيز استرقاق أى انسان عن هذا الطريق مهما يكن لونه ومهما تكن عقيدته . مسلما كان أو غير مسلم . وانما يبيح الرق فى حالة واحدة هى حالة حرب عدوانية من عدو بعد اعلانه بقيام الحرب ضـده . فالاسلام لا يبدأ بالعدوان . ولا يسمح بحرب الا بانذار من اعتدى أو خان العهد أو نقض المعاهدة المبرمة بينه وبين المسلمين.

هذه هى تعاليم المسلمين فى حروبهم . والأسرى المحاربون هم الأرقاء . ولا يوجد فى الاسلام رق الا بهذا السبب .. فلا نخاسة . ولا غزو . ولا نهب ، ولا اختطاف لصغير أو كبير.

ولم يبح الاسلام مع ذلك للمسلمين أن يعاملوا أرقاءهم كما كان الأقدمون والمحدثون يعاملونهم . بل حض على احسان معاملتهم . كما أوجد أسبابا عدة لعتق الأرقاء ؛ لأنه يعتبر الرق حالة مكروهة ؛ فهو يعمل على ازالتها ، ويرى أن الحرية هى الأصل وأن الرق أمر عارض اقتضته ظروف خاصة .

واذا كان الرق قد أجازه الاسلام لسبب عارض مؤقت فانه عمل على تضييق مصادره بقصره على أسرى الحرب الشرعية ، وألزم الأفراد بعتق الرقاب فى الكفارات ، ورغبهم فيه باعتبـاره قربة الى الله تعالى ، قال جل شـأنه : « ومن قتل مؤمنـا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » . ويقول النسفى فى تفسير هـذه الآية : « قيل لما أخرج نفسا مؤمنة من جملة الأحيـاء لزمه أن يدخل نفسا مثلها فى جملة الأحرار ، لأن اطلاقها من قيد الرق كاحيائها،

من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات . اذ الرق أثر من آثار الكفر والكفر موت حكما : أو من كان ميتا فأحييناه » .

كما فرض الاسلام على حكومته أن تجعل من أبواب انفاق الزكاة عتق الرقاب ، قال تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب » .

وقد قرر الاسلام معاملة الأرقاء معاملة كريمة تجعل للرق « غير ذى موضوع » ، أو علاقة اجتماعية استنفدت أغراضها.. ومن ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام « هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم عليه » ؛ وقوله « فما أحببتم فأمسكوا، وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله فان الله ملككم اياهم ، ولو شاء لملكهم اياكم » . ومن آخر وصاياه عليه السلام « الصلاة وما ملكت ايمانكم » .

وكان الرسول الكريم ينهى عن ذكر اللفظ نفسه ، لأنه يشعر باستعلاء المسترق على المسترق ، فيقول : لايقل أحدكم عبدى وأمتى ، وليقل فتاى وفتاتى » . وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : انى لأخجل من نفسى اذا استعبدت رجلا يقول الله ربى » . وكان النبى يأمر المسلمين بالرفق بالأرقاء وعدم القسوة فى معاملتهم فيقول : « من لطم مملوكا أو ضربه فكفارته عتقه » . وحديثه المشهور لايستبعد الرقيق من ولاية أمور

لمسلمين . وفيه يقول : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

وقد سعى الاسلام في تسهيل عتق الأرقاء فجعل للرقيق حق المكاتبة . وهو أن يكاتب سيده على مبلغ من المال يدفعه فورا أو على أقساط . ويشتري بذلك حريته . قال تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا . وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » .

من هذا نرى أن الاسلام قد ألغى الرق « موضوعا وهو لايرغب في الزواج من الاماء حتى لايتكاثر الرقيق . لأنه يريد للرق أن يذوى وللحرية أن تزدهر . يقول الله تعالى : «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات . والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض » .

ومع ذلك فان أنجبت الأمة ولدا قرر الاسلام لها مركزا غير مركز الرقيق ، انها تعتق وتصير « أم ولد » ، وليس لسيدها أن يتصرف فيها بهبة أو بيع ، ويكون ولدها حرا .

والاسلام يتلمس كل وسيلة مهما تكن واهية لعتق الرقيق، فيكفي من السيد أن ينطق به « أي بالعتق » ليقع ، ولو كان مازحا أو مكرها أو فاقدا رشده بفعل خمر أو غيرها .

وأخيرا يعمل الاسلام على القضاء على ما بقي من أشكال

الرق ومراسه ، وفى ذلك يقول الرسول الكريم : « شر المال فى آخر الزمان المماليك » .

وأما السيف فلا ينتضى الا لدفع الفتنة ورفع الضغط عن حرية الرأى ، قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

أما حرب العدوان والتوسع فى السلطان فهى مرفوضة فى حكم الاسلام . قال تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا . والعاقبة للمتقين » .

فاذا كفلت حرية الرأى ، وخلى بين الناس وبين خالقهم يتفكرون فيه بحرية ويعتنقون ما يريدون بارادة ووعى فمجال الدين هو الاقناع والبرهان . ولا مجال للسيف ما دامت حرية الرأى مكفولة سواء أسلم الناس أو لم يسلموا .

والاسلام هو الدين الواثق من نفسه ثقة لا يأبه معها أن يجبر العدو ، ثم يوصله بسلام الى معسكره ليستأنف قتاله من جديد اذا أراد مادام قد أسمعه كلمة الهدى وسلك به سبيل الاقناع ، قال تعالى : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه » .

واذا حمل المسلمون على القتال فرض عليهم الاسلام آدابه ومثله النبيلة ، فلا يتبع المسلم المدبر ؛ ولا يجهز على جريح ، ولا يقتل امرأة ولا شيخا ولا طفلا ؛ ولا يعيث فى الأرض فسادا بالتخريب والتقتيل والتحريق ولو فى النبات والحيوان .

وحين يغلب السيف لايفرض الاسلام فى ظله . فالأديان والعقائد لا تعتنق تحت ظلال السيوف . بل يكتفى الاسلام هنا بحرية رمزية . ويكتفى بما تتيح للمسلمين من فرص الدعوة الى دينهم بأخلاقهم وسلوكهم ومنطقهم .

والاسلام العظيم يقرر الحرية على اختلاف ألوانها ويحميها. وحرية التملك والتصرف فى المال مقررة فى الاسلام للرجل والمرأة على السواء . كما حرية العمل وحرية الفكر . وحرية اعتناق المبادىء . وحرية الانتقال وحرية الاجتماع .. كل هذه الحريات وأمثالها مصونة فى الاسلام بشرط ألا تضر بمصالح المجموع الذى ترعاه شريعته وتحميه سلطة دولته .

وشريعة الاسلام لاتجيز التعسف فى استعمال الحق ، يقول النبى الكريم « لاضرر ، ولا ضرار ، ولا استئثار ، ولا غلول ».

(الضرار : المضرة . غل يغل غلولا : خان من المغنم) .

وقد صان الاسلام حرمات الانسان الشخصية بالنسبة لسلطات الدولة نفسها ، فلا جريمة ولا عقوبة الا بنص القانون، يقول تعالى : « عفا الله عما سلف » . والمتهم برىء الى أن تثبت ادانته . والشريعة الاسلامية تقرر ضمانات فى الاستدلال والتحقيق والمحاكمة ، ولا تميل الى التأثيم والتجريم بغير دليل قاطع .. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ادرأوا الحدود بالشبهات » ، ويقول عليه السلام : ادرأوا الحدود عن المسلمين

ما استطعتم ، فان وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله ، فان الامام لأن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » .

وبعدفهذا هو موقف الاسلام العظيم من الحريات بأنواعها ؛ ومنه ندرك أنه قد كفلها جميعا ، ووفر للفرد كرامته وانسانيته وعزته بهذه الكفالة . على شريطة ألا يكون فى ذلك تحيف على أخيه الانسان أو على المجتمع .

مفهوم الاشتراكية فى الإسلام

لعل من أهم ما يهدف اليه الاسلام حرصه على اذابة الفوارق المادية بين الناس . والتقريب بين الطبقات التى باعد المال فيها بين الانسان وأخيه . فقرر الزكاة . وهى حق معلوم يجب أن يؤدى فى كل ما يملكه الانسان بنسبة معروفة الى الفقير والمسكين والمحتاج .. لا على أنها صدقة . بل على أنها حق واجب الاداء . فلا يخدش بذلك حياء الفقير . ولا يطامن من عزة المحتاج .

وفى سبيل التقريب بين الناس حرم الاسلام الربا ؛ لأنه يضاعف الثروات على حساب استغلال حاجة المحتاج .

وقد أراد الاسلام بذلك أن يخلق المجتمع المتكافل الذى لا يحقد فقيره على غنيه ، ولا يعيش غنيه بعيدا عن فقيره . بل يصبح الغنى وهو يحس بأخيه الفقير فيعطيه . ويعرف الفقير أن الغنى انما هو أخ خصه الله بسعة فى الرزق فلم يحرمه ؛ وانما قدم له حق الأخوة وحق الاسلام « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . فكل من أشاع غير ذلك بين المسلمين فانما

أراد أن يخلق فى المجتمع الاســلامى طبقات متنافرة متباغضــة متحاسدة ، فيحقد الفقراء على الأغنياء . ويزدرى الأغنياء الفقراء وبذلك تتصارع القوى بين افرأد الــوطن الواحد ، فيتصـــدع المجتمع ويهوى الى قرار سحيق .

واذا كانت الاشتراكيات بكل نظمها وألوانهــا تلتقى على معنى اشـــتراك الأفــراد فى موارد الدولــة ، أقــول اذا كانت الاشتراكيات كذلك فان الاسلام بمدلوله الواسع يشمل أجمل صور الاشتراكية ، ويزيد عليها بما يحقق الحياة الطيبة للفــرد والجماعة والأمة والانسانية .

والاشتراكية الاقتصادية التى يرضاها الاسلام ويباركهــا ويدعو اليها تنبع من معـــين نظيف هو القلب الانسانى المؤمـــن المتدين الحر الذى يؤمن بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأنه هو الذى يعطى ويمنع ، وأن الغنى عارية منه مســتردة ، وأن الخير الذى ينعم به الانسان سببه أن الله جعــل له الأرض ذاولا يمشى فى مناكبها ويأكل من رزقها : يقول تعالى : « ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقــون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ؛ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعــلمون » .

والسماء بما فيها ، والكون بما فيه مسخر للانسان ، ميسر لمصالحه كما يفهم من قوله تعالى فى مواطن كثــيرة من كتــابه

[illegible] حين قال « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ؛ ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر . والنجوم مسخرات بأمره . ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه . ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون .. الى آخر الآيات » . وصدق الله العظيم حين قال : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم » .

لهذا كان طبيعيا أن يسمى المال مال الله يأخذه منه الانسان لقاء الجهد الذى يبذله فى سبيل السعى اليه والحصول عليه . وأن يسمى الانسان خليفة الله عليه . ينميه بالوسائل المشروعة وينفق منه فى الوجوه المشروعة ؛ كما يفهم من قول الله سبحانه « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ؛ وقوله تعالى « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

وقد أعجبنى أشد اعجاب أعرابى كان يسوق أمامه مالا كثيرا « المال هو الابل والغنم » فسئل : لمن هذا المال ؟ فقال : لله فى يدى . ولم يكن هذا الأعرابى ــ بطبيعة الحال ــ ممن لقنوا مبادىء كارل ماركس وغيره ، وانما كان أحد أفراد المجتمع الاسلامى العربى الذين تعهدهم الاسلام بالتربية السليمة والتوجيه الرشيد ؛ حتى جعل منهم « خير أمة أخرجت للناس » وجعل من مجتمعهم خير مجتمع عرفه الوجود .

وهذا الجواب الذى رد به الأعرابى على سؤال السائل تتركز فيه — على ايجازه — كل معنى الاشتراكية التى جاء بها الاسلام . ثم هو تعبير صادق عن شعور المسلم نحو خالقه الذى خلقه وسواه ، والذى يعلم سره ونجواه ؛ اذ يشعر بأنه لا يملك ما فى يده ، لأنه يؤمن بأنه وما ملكت يداه لخالقه ورازقه .

وكيف لا وهو يرى ذلك ويسمع آيات الله تتلى عليه وتهز شعوره وضميره وتفكيره بمثل قوله تعالى : « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، انا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » .

بهذه الآيات وغيرها — وما أكثرها فى القرآن الكريم — تفتحت القلوب والأذهان على الحقيقة التى تصل المسلمين بالسماء ، وتمكن لهم فى الأرض ، وتهيىء لهم أسباب البر والخير وهذه الحقيقة هى أن الله جل وعلا « له الخلق والأمر » ، « لله ملك السموات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شىء قدير » « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير » .

ويستتبع الايمان بهذه الحقيقة أن يشعر الانسان بأنه مدين

.. يحب له ويبس نفوه عليه حينه . وأن ينظر ى الناس حوله على أنهم خوه بنسون معه ى أصل واحد . ويدينون معه بدين واحد . فمن حقهم عليه وحقه عليهم أن يعينهم وأن يعينوه . وأن يكون معهم ويكونوا معه كما يقول الله تعالى : « وتعاونوا على البـر و تقوى ولا تعاونوا على الاثم و لعـدوان » . وكما يقـول سبحانه نما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم . واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

وعلى هذا الأسس . وبهذا الاحساس استقبل الأنصار فى المدينة اخوانهم المهاجرين من مكة . فقبلـوا عن طيب خاطر أن يتنازلوا لهم عن نصف أموالهم . بل لقد كان بعضهم يؤثر أخاه على نفسه . ولا يجد فى صدره شعورا بحسد أو ضيق اذا خصه النبى صلى الله عليه وسلم بشىء دونه . وهذا واضح من قـوله تعالى « والدين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم . ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتو ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وقد كان نظام المؤاخاة فى أول العهد بالاسلام يقضى بأن يرث المسلم أخاه فى الاسلام ، وبأن يتعاونا على الحق والمواساة وبقى هذا النظام متبعا حتى عزت الدولة بالنصر فى موقعة بدر ، وفرضت الزكاة ، وكثرت الأموال والأنفال ، وذهبت وحشـة الهجرة والشعور بالغربة عن المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم

بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله . عندئذ صار التوارث قاصرا على ذوى القرابات . ونزل فى ذلك قوله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » .

ومعنى ذلك أن ذوى القرابات بعضهم أولى ببعض من الذين جمعوا بين الايمان والهجرة . ويلاحظ أن الدين والايمان قدر مشترك بين ذوى القرابة من الأنصار والمهاجرين على السواء ؛ لأن اختلاف الدين يمنع الميراث . وأن القرابة أمر زائد يبرر الارث . أما الهجرة فقد خفت قسوتها على المهاجرين بعد أن ألفوا الاقامة بالمدينة وعرفوا طريق الكسب والحياة فيها ثم ان الايمان يدخلهم فى معنى الاخاء العام . ويكفل لكل مؤمن على أخيه المؤمن حق المؤازرة والمناصرة والتعاون على البر والتقوى . وما الى ذلك من معانى البر والخير التى تفهم من قوله تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ؛ ان الله عزيز حكيم » . وليتأمل القارىء قوله تعالى « بعضهم أولياء بعض » ليدرك من معانى الاشتراكية فى الاسلام ما لا يتسع له المجال فى هذا المقال .

ونخلص من ذلك الى أن الأساس الذى تقوم عليه الاشتراكية فى المجتمع الاسلامى يختلف اختلافا جذريا عن الاساس الذى تقوم عليه الاشتراكية فى غيره من المجتمعات ..

نه فيه تعبير عن شعور كل فرد فيه بحق أخيه عليه . ولا يكمل ايمانه بدونه .. انه فيه ثمرة طيبة لشجرة طيبة « أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » ؛ وفى غيره ثمرة مرة لنزاع مرير وصراع طال مداه بين العمال وأصحاب رءوس الأموال . انها فيه تقوم على الايمان بالله خالق الجميع ، ورازق الجميع وعلى أن المال مال الله فيجب أن يوجه لخير الجميع وصالح الجميع . وعلى أن المؤمنين اخوة فيجب أن يتعاونوا على البر والتقوى كما يقول الله ؛ وأن يكونوا « كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » كما يقول رسوله عليه السلام .

هذا هو الأساس الذى تقوم عليه الاشتراكية فى المجتمع الاسلامى ، بل فى ضمير كل فرد فيه ، يؤكده النبى الكريم بقوله « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه » . وقوله « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وقوله « ما آمن بى من بات شبعان وجاره الى جانبه طاو » ، وقوله « أى رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برىء منهم الله ورسوله » .

وهذا الأساس هو وحده الذى تقوم عليه الحياة الطيبة للفرد والجماعة والأمة فليس المال ملكا خالصا للدولة حتى تأكل جهود الأفراد وتلغى وجودهم وليس ملكا خاصا للافراد حتى يحق لهم احتجابه واختزانه ، أو استغلاله بطرق آثمة ووسائل ظالمة كما هو الشأن فى الرأسمالية .. انما هو ملك لله ، يأخذ منه الانسان بالوسائل التى شرعها الله ، وتأخذ منه الدولة بمقدار ما

يعينها على تأمين حدودها وتأكيد وجودها وتيسير أسباب الخير والحياة الطيبة لبنيها .

فالملكية الفردية مشروعة فى الاسلام على أساس أنها ملكية نسبية ناقصة ، لا ملكية خالصة كما ذكرت .

والضرر الخاص الذى قد يلحق بعض الأفراد يجب أن يتحمل فى سبيل دفع الضرر العام كما هى القاعدة الشرعية .

وهكذا نرى الاشتراكية فى الاسلام تحمل طابع العدل والايمان ، لأنها من وحى الله وهدى النبوة . ولو ذهبنا نعرض صورها وأثرها فى المجتمع الاسلامى لطال بنا هذا المقال . وحسبنا أن نضع أمام الأنظار هذه الصورة التى رآها نبينا الكريم وتحدث عنها .. انها تمثل قبيلة من العرب يدعى أهلها باسم « الأشعريين » وينسب اليها أبو موسى الأشعرى .. يحدثنا النبى عن هذه القبيلة فيقول : ان الأشعريين اذا أرملوا « أى افتقروا » وفنى زادهم أو قل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم فى اناء واحد بالسوية .. فهم منى وأنا منهم .

فأى شرف خلعه خير من أقلته الأرض وأظلته السماء على هذه القبيلة الكريمة بأن جعلهم منه وجعل نفسه منهم .

وأى معنى للاشتراكية أنبل وأجمل من هذا المعنى ؟

تالله لو يمم العالم وجهه شطر هذه الاشتراكية التى رسمها الاسلام لأضحى عالما سعيدا تظله المحبة والتواد والتراحم والاخاء .

الإسلام والحرب

ان لاسلام بمبدئه اسمية دين سلم وسلام . وقد ثبت بدليل القاطع أن رسول كريم لم يكن معتديا . ولم يبدأ بالعدوان قط . وقد صمد ـ عليه السلام ـ وصبر وصابر ؛ ولقى آلوانا من الأذى و لعنت والتصدى فى سبيل نشر رسالته .

ولما رأت قريش أن فى هجرته ورجاله الأولين خطرا يهدد دينها ومجتمعها ، وثبت لها أن ما أقدمت عليه من خطوات سابقة كالاغراء ثم المقاطعة ثم التهديد لم يكن له أثر فى ايقاف الدعوة السماوية ـ لما رأت قريش ذلك لم تجد مناصا من أن تمتشق الحسام وتسل المهند ضد محمد وأصحابه ، فيتم بذلك القضاء على الدين الجديد .

ولهذا لم يجد النبى عليه الصلاة والسلام بدا من أن يتصدى للعدوان ، وفى ذلك نزل قول الله تعالى : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » ولم يكن هناك مفر من أن يقرر الاسلام ذلك حفاظا على دعوته ، وصونا لها من

أن تندثر وهى فى مهدها . قال تعالى : « فان قاتلوكم فاقتلوهم » وقال جل شأنه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

وهكذا فرضت الحرب على المسلمين وهم كارهون لها « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا من يقاتلهم وألا يبدأوا بالعدوان لأن ذلك يكون دفاعا عن النفس . والدفاع عن النفس واجب ومشروع ، قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا . ان الله لا يحب المعتدين » .

وأمرهم الله ألا يقاتلوا فى المسجد الحرام أو الأشهر الحرم الا اذا قوتلوا فيها « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم » ؛ « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

ولما اشتد خطر المشركين ، وبدا أنهم يتربصون بالنبى ورجاله فى كل وقت وفى كل مكان أذن الله للمسلمين بالقتال مطلقا « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » . « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » .

[illegible] على [illegible] و[illegible] [illegible] [illegible] على افريقية
[illegible] من البحر الاحمر الى المحيط الاطلسى . ولم يتركوا أثرا
للعسف أو التخريب فى طريقهم الا ما كان لابد منه فى كل حرب
فلم يسيئوا قط معاملة أهل البلاد .

ثم قارن دى كسترى بين هذا اللين والعطف الذى أبداه الاسلام وبين الشدة والروح الحربية القاسية التى بدت بين الأديان التى تقدمته . ونقل عن الكتاب الخامس من الزبور قوله : « اذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فعرض عليها الايمان . فان قبلته فقد سلم كل من فيها ؛ وان أبت فشدد الحصار عليها ومتى وفقت الله للظفر بها فاحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام » . ثم قال دى كاسترى : فكان من وراء محاسنة المسلمين للامم المقهورة أن انتشر الاسلام بسرعة وعلا قدر رجاله الفاتحين . لما سبقه من ظلم باطرة المملكة الرومانية الشرقية المسيحية . فقد أبغضها الناس وكرهوا الحياة فى ظلها .. واذا انتقلنا من الفتح الأول للاسلام الى حين استقراره ورسوخ أقدامه رأيناه أكثر محاسنة وأكرم معاملة للمسيحيين فى الشرق كله . فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحى . بل بقيت روما نفسها مرة فى مراسلة الأساقفة فى مختلف البلاد الاسلامية .. الى أن قال : وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر للمقهور هى التى ضعضعت الديانة النصرانية الى حد كبير ، ثم زالت بالمرة من

شمال افريقيا . على أن الاسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره. فلم يكره على الأخذ به أحدا بحد السيف ولا باللسان ؛ بل دخل القلوب عن حب واختيار . وكان هذا من آثار ما أودع فى القرآن من صفات التأثير والأخذ بالألباب .. ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الأندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين .. الخ » .

ويقول العالم الباحث الكبير الأستاذ « دوزى » فى كتابه « أبحاث فى التاريخ السياسى والأدبى لاسبانيا فى العصور الوسطى » ما نصه (١) :

« أن هذا الفتح لم يكن ضارا باسبانيا « يقصد الفتح الاسلامى » . وما حدث من الهرج والمرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء ؛ وكثير منهم تولى قيادة الجيوش . وقد تولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية الى المسلمين وحصل بينهم تزاوج كثير »

وتلك الفقرات التى أوردناها لعالمين من مسيحيى العالم القديم « أوربا » وهاكم عالما آخر من يهود العالم الجديد

Dozy : Recherches sur l'Histoire Politique et Littéraire de l'Espagne pendant le Moyen Age. V. 1. P. 204.

« أمريكا » ، هو الأستاذ « درابر » من أشهر علمـاء الاجتماع بجامعة « نيويورك » .. يقول فى كتابه « المنـازعة بين العـلم والدين » (١) :

« عامل العرب اليهود فى الأندلس فى ظل الحكومة الاسلامية أكرم معاملة ، حتى أثروا وأصبحوا ذوى مكانة عالية فى الادب والفلسفة .

هذه أقوال نفر من علماء الغرب الذين يدينون بغير الاسلام وهى وغيرها تدل على أن الاسلام جاء بأصول أسمى مما كانت عليه الأديان التى سبقته ، سواء فى الحرب أو فى السياسة ، وذلك واضح من المقابلة بين تاريخ المسلمين وتاريخ من سبقهم من جميع الملل .

ونعود بعد ذلك الى شرعية القتال فى الاسلام فنرى أنه — كما قلنا — كان لرد الاعتـداء أو لصيانة الدعـوة ونشرهـا وحمايتها . وفوق هذه الأسباب سبب آخر هو أن الله عز وجل لم يشـأ أن تعامل قريش معـاملة الأمم التى خلت من قبلهم فى الازمان الغابرة ، فينزل عليها العذاب من السماء ، أو يخسف بها الأرض كما أهلك غيرها من الأمم السابقة التى كذبت رسله فحق عليها العذاب « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » .

Drapper : Contention between The Science and The Religion.

لم يشأ الله الرحيم أن يعامل قريشـــ كما عامل عادا الذين بعث اليهم هودا عليه السلام ؛ فكذبوه فأرســـل عليهم ريحـــا عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فأبادتهم «وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيـــة ؛ سخرها عليهم ســـبع ليـــال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » .

أو كمـــا عامل ثمود الذين بعث اليهم صـــالحا فلم يتبعوه فأرسل الله عليهم صيحة من السماء فتفضت قلوبهم فى صدورهم وهلكوا « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » .

أو كما عامل قوم نوح الذين أهلكهم بالطوفان « فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين » .

لم يشأ الله تعالى أن يعامل قوم الرسول الكريم كما عومل هؤلاء من قبلهم ، فان الرسول لم يدع عليهم بالهلاك كما فعل الرسل من قبله ، وانما كان يدعو لهم بالهداية « اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون » ، ولكنهم أبوا واستكبروا وتصدوا له بالأذى هو ومن آمن به ، فشرع الله القتـــال لتأديبهم وللدفـــاع عن الاسلام والمسلمين ورفع كلمة الله ؛ لعلهم يرعوون ويعـــودون الى رشدهم . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله ، فان قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها » . ويروى أنه ــ عليه السلام ــ

أمسك السيف فى يمينه والقرآن فى يساره وقـال : بعثت بهذا وبهذا لأقوم بهذا من أعرض عن هذا » .

ولقد اتفق المؤرخون المنصفون على أن الرسول لم تكن له رغبة فى القتل ، بل كانت أمنيته ان يؤدى رسالته كما أمره الله تعالى فى هدوء ويسر . وهذه الفكرة الجليلة هى التى باعـدت بينه وبين الحرب منذ أن بدأت قريش معارضتها للدعوة المحمدية وأخذت تقدم للرسول وصحبه أشـد ألوان الأذى والاضطهاد والتصدى . ولهذا نراه عازفا عن الحرب ، كارها لها ، حتى ان أهل يثرب لما عرضوا عليـه فى أول الأمر أن يتصـدى لقريش بالسيف قائلين : والله الذى بعثك بالحق ان شئت لنملين على أهل منى بأسيافنا » رفض بشدة ، لأنه لم يكن يؤمن بالحرب كوسيلة لنشر الدعوة ، وانما كان يؤمن بالاقناع وبسط أصول الدعوة السليمة لدى القوم . بيد أنه لما رأى كفار قريش يتصدون لـه ويناجزونه من جهة ، ويحولون بين الناس وحرية الاعتقـاد من جهة أخرى وجد أنه لابد من امتشاق الحسام لوضع حد لذلك

ولم يكن الاسلام فى حاجـة الى كسب الأنصار بالقـوة والعنف ، وانمـا كان يكسبهم بالاقنـاع والحجج السـاطعة والبراهين القوية اذا ما خلى بينهم وبين التفكير الحر البعيد عن التهديد والضغط والوعيد والارهاب .

وقد أمر الله نبيه بأن يدعو الناس الى الاسلام بالحسـنى فقال : « ادع الى سبيل ربك بالحكمـة والموعظة الحسـنة »

وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ، وقال جل شأنه : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

فأعداء الاسلام هو الذين أكرهوا المسلمين على الحرب ، لأنهم أرادوا أن يفتنوهم عن دينهم بالقوة « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا». فكان لابد للمسلمين من حماية أنفسهم ودرء الأذى عن دينهم .

والنزعة الحربية فى فطرة الناس ومن غرائز المجتمعات ، ويقول علماء الاجتماع ان الحرب من أسباب قيام الحضارات وتركيزها والمحافظة عليها ، حتى يلتزم الناس حدودهم ، ويحترموا حقوق الآخرين ، فلا يستشرى الفساد والظلم ، ويستبد الأقوياء بالضعفاء ، ويحال بين الناس وحرياتهم ،وتتعطل بالتالى شعائر الدين ، وتتهدم أماكن العبادة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» . ولهذا كان تهذيب فكرة الحرب فى النفوس وحصرها فى أدق حدودها وأسمى طرائقها وتحديد أهدافها ، هى غاية ما ترجوه البشرية .

وقد نظم الاسلام هذه النزعة أسمى تنظيم ، ووجهها أسلم وجهة ، وأنزلها فى المنزلة التى خلقت من أجلها وجعلها سياج ملكه والمثل الأعلى لأخلاق جنده وعدها من أسمى العبادات المفروضة وربطها بغيرها ، مثل الصلاة والصوم والحج والزكاة لحفظ العقيدة وصون الحرية وقيام الدولة وارهاب العدو ، لا للعدوان.

وجعلها آخر ما يلجأ اليه المسلمون من أدوات الاقناع ولغة التفاهم مع المعتدين .

ونهذا كانت الحرب خيرا وبركة على المسلمين ، فأعزتهم فى دبرهم . ومكنتهم من أعدائهم ؛ وملكتهم ما لم يكونوا يملكون ، وطلقت سلطاتهم فى العالمين .

وقد تناول القرآن فى كثير من آياته القتال من جميع نواحيه ، فعرض للاسباب الباعثة عليه . وللغاية التى ينتهى اليها وعرض لما يجب على المسلمين من الاستعداد له والاحتياط لطوارئه ووضح الكثير من قواعده وأحكامه .

كما بين القرآن أن القتال فى سبيل الله يضاعف أجر المجاهدين ، لأن فيه انقاذا للضعفاء ، ومقاومة للطغيان ، ودحضا لعوامل الشر .. قال تعالى : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما . وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

وأوضح القرآن أجر المجاهدين فى سبيل الله بالنفس والمال وذكر أن هذا الأجر لا يقف عند حد ولا يدركه الا عالم الغيب والشهادة ، فقال : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام

كمن آمن بالله واليوم والآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله . وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا ان الله عنده أجر عظيم » وقال : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم »

وقد حبب الاسلام الجهاد الى المسلمين ، وحثهم على التضحية فى سبيل الله بكل عزيز ونفيس .. فلا الآباء ولا الأبناء ولا الاخوان ولا الأزواج ولا العشيرة ولا التجارة ولا المساكن .. كل أولاء لايصح أن يحولوا بين المؤمنين وما تقتضيه محبة الله ورسوله من تضحية وجهاد ، قال تعالى : «قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

وقد أقام المسلمون فى مكة أعواما يسامون الخسف وسوء العذاب ويضطهدون فى حريتهم الدينية وفى عقيدتهم ، ويفتنون فى أموالهم وأنفسهم حتى أكرهوا على الهجرة . وكم تجاوبت فى

نفوسهم فكرة رد الظلم والانتقام من المعتدين ، ولكن الرسول الكريم كان يدعوهم الى الصبر والمصابرة ، لأنه لم يتلق الأمر بالقتال ، ويقول لهم : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » .

وظلوا على هذه الحال الى أن نزل قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » ، وقوله : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » .

ولقد كانت فتنة المؤمنين عن دينهم أكبر شىء عند الله ، ولذا كانت الغاية الأولى التى شرع القتال من أجلها . والحجة على ذلك ما نزل من الآيات الكريمة فى سرية عبد الله بن جحش الأسدى حينما أثارت قريش القبائل ضد هذه السرية بحجة أنها استحلت الشهر الحرام وسفكت فيه الدماء ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » .

ومعنى ذلك أن القتال فى الشهر الحرام وان كان اثما كبيرا الا أن ما اجترمه كفار قريش من اضطهاد المسلمين ، والصد عن

سبيل الله والكفر به ، والصد عن المسجد الحرام واخراج أهله منه .. كل ذلك أكثر اثما وأشد نكرا .

والاسلام يبث فى نفوس المجاهدين القوة والشجاعة. ويحثهم على الاقدام ويذكرهم بأن الله لن يتخلى عنهم ، يقول : « اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ، ويقول جل شأنه : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » .

ويمكن أن نجمل الأصول التى قامت عليها الحرب فى الاسلام فى الأمور الاتية :

١ ــ دفع الظلم والبغى والاضطهاد عن المسلمين ، ورد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين . روى أبو داود والترمذى والنسائى عن سعد بن الزبير . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد » .

واشترط الاسلام أن يكون الدفاع ورد العدوان على قدر الاعتداء ، فلا يصح أن يجاوز حده «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا

عليه بمثل ما اعتدى عليكم » . وذكر أكثر من مرة أنه لا يحب المعتدين ، بل انه حبب الى المسلمين العفو ومقابلةالاساءة بالصبر « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »

٢ ــ المحافظة على حرية الاعتقاد الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنـــة ويكون الدين كله لله » .

٣ ــ حماية الدعوة حتى تبلغ الناس جميعا ويتبين موقفهم منها ، لأنها دعوة تحمل رسالة اجتماعية اصلاحية شاملة تنطوى على مبادىء الحب والخير والعدل . فمن حاول أن يقف فى طريقها أو يصد الناس عنها يجب أن يستأصل من طريقها « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم اللهورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الــكتاب » ، ويقول « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا » .

٤ ــ تأديب ناكثى العهد من المعاهدين « وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون . الا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم ، فالله أحــق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين » .

٥ ــ اغاثة المظلومين من المؤمنين والانتصاف لهم من الظالمين « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر » .

٦ ــ الكف عن القتال اذا كف عنه الأعداء « فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » . والاسلام يدعو جنده الى الجنوح للسلم اذا لاحت بارقة أمل فيه ، والى اطفاء نار الحرب ، الا اذا استنفدت جميع وسائل المسالمة « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

ويذهب الاسلام فى الجنوح للسلم الى أبعد حد . فهو يدعو اليه ولو كان هناك بعض الاحتمال فى أن يكون اظهار الميل الى الجنوح له من الأعداء خداعا « وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين »

٧ ــ قصر الحرب على المقاتلين ليس غير ، فلا يجوز التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان .. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقاتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » وروى عنه أيضا : « لا تقتلوا شيخا فانيا ولا صغيرا ولا امرأة » وكان الرسول اذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ؛ اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا للأكل » .

أفرأيتم بعد هذا انســانية أسمى مما رسمه نبى الاســلام للمجاهدين المســلمين ؟

٨ ــ تحريم التمثيل بالقتلى والاحراق بالنــار ، وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : انى كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا ، وان النار لا يعذب بهــا الا الله » .

٩ ــ تحريم تجويع الأعداء واتلاف الأموال . وكان النبى قد أمر باحراق نخل بنى النضير أثناء حصاره لهم بقصــد حملهم على التسليم ، فلما رأوا ذلك قالوا له : انك تنهى عن الفساد فى الأرض، فما بال قطع الأشجار وتحريقها ؟ فأمر الرسول بالكف عن التحريق ، ونهى عن لتخريب فى بلاد العدو . وكان أبو ثمامة قد منع الميرة عن قريش ، فأخذهم الجوع حتى أكلوا الجلود ، فذهب أبو سفيان الى النبى وشكاه ، فأمر الرسول أن يرســل الميرة لهم .

١٠ ــ الاحسان الى الأســير . وقد مــدح الله من يطعم الأسير فى قوله : ويطعمون الطعام على حبــه مسكينا ويتيمــا وأســيرا » .

١١ ــ ضرورة اعلان الحرب من جانب المسلمين قبل البدء فى أى قتال رغبة فى ألا تكون الحرب وسيلة للخــداع والخيــانة والختل « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » ، أى فنابذهم فى صراحة واعلان وبيان .

والاسلام يحتم بذل الجهد قبل القتال فى النصيحة ، والدعوة الى الكف عن العدوان والظلم والأذى ، فاذا لم يفد ذلك وجب اعلان الحرب .

١٢ ـ الوفاء بالمعاهدات والعهود فى الحرب والسلم .
والاسلام يحث على ذلك فى شدة ، ويتوعد الناقضين للعهود والمواثيق بأشد الوعيد . وقد أشار الى ذلك فى كثير من موضع فى الكتاب الحكيم ، مثل قوله : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون » ، وقوله : « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » ، وقوله : « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم » ، وقوله : « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا »

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « من ظلم معاهدا أو انتقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب من نفسه فانا حجيجه يوم القيامة » .

١٣ ـ قرر الاسلام أن يكون المسلمون جميعا جنودا للاسلام ، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم . الكل مكلف بحمل السلاح لصد العدوان والدعوة لدين الله . وفى الوقت نفسه أعفى غير القادرين منهم من القتال ، مثل المريض والعاجز والشيخ الطاعن فى السن ، ومن على شاكلتهم .

١٤ ــ عدم التظاهر بالقوة والتفاخر بالنصر « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس » .

١٥ ــ التزام العدالة بعد الانتصار « الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور » .

١٦ ــ مقصد الاسلام من الحرب اعلاء كلمة الله . وليس هدفه منها الظفر بالغنائم . بل انه حارب هذه الفكرة « يأيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا . ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا . فعند الله مغانم كثيرة . كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيرا » . وقال رجل لرسول الله : رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا . فقال له الرسول : لا أجر له .

١٧ ــ قرر الاسلام نظام الجزية على غير المسلمين فى البلاد التى يفتحها المسلمون نظير قيامهم بحمايتهم والدفاع عنهم فى الوقت الذى قرر فيه اعفاءهم من القتال فى صفوف المسلمين ؛ وقرر الاسلام سقوط الجزية عنهم اذا اشتركوا مع المسلمين فى القتال ، أو اذا لم يتيسر الدفاع عنهم وحمايتهم .

أفبعد هذه المبادىء القوية السامية التى جعلها الاسلام سياجا للحروب يرجف المرجفون باتهام المسلمين باثارة الحروب ، وبأن دينهم تنقصه المحاسنة والرقة واللطف واللين ؟ .. ألا خسىء هؤلاء الشانئون المرجفون ، وبئس ما يفعلون .

لقد جاء الاسلام فى هذا الباب ـ كما رأينا ـ بأصول عظيمة شامخة تتضاءل بجانبها الأصول والمبادىء الخسيسة التى يصطنعها المدعون بأنهم حماة المدنية فى القرن العشرين .

انى أريد أن أهمس فى آذان هؤلاء بكلمة يسيرة .

أيها القوم : لم يسمع العالم حتى الآن عن أناس فضلوا قاهريهم على حكوماتهم الوطنية غير ما سمعناه عن الشعوب التى أخضعها العرب .. وذلك لسمو المبادىء التى أتوا بها . حتى انهم جعلوا الاستعمار سائغا لدى الشعوب التى افتتحوا بلادها . وهذا لعمرى مجد عظيم لاتستطيع ألوف مؤلفة من المرجفين أن يطمسوا سناه الوهاج . ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وكلما تقادم عليه العهد ازداد تلألؤا « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون »

الإسلام دين العلم والفكر

الاسلام الحنيف خاتم الأديان ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، خاتم الأنبياء والمرسلين . وقد جاء الاسلام ليجمع شتيت بنى الانسان على الايمان والحق والمؤاخاة وسلامة النظر واستقامة التفكير . ولهذا كان ديننا صالحا لكل زمان ومكان .

وقد كان على الاسلام أن يقوم بمهمتين خطيرتين :

الأولى : أن ينبه العقول من غفلاتها ، وأن يلفت الانسانية الى ضلالتها .

الثانية : أن يضع دستورا دينيا لا يقع الآخذ به فى حبالة الغى والضلال ، وأن يكون هذا الدستور كاملا يصلح لكل دور من أدوار العقلية الانسانية .

ولعل من أخص ما أوجبه الاسلام على معتنقيه أن يهيب بهم الى النظر والتدبر والتفكير ، وقد ساق ذلك فى أساليب مؤثرة تفعل ما لاتفعله أقسى الزواجر ولا أشد المثلات ، مثل قوله تعالى : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون» :

وقوله : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون . ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » وقوله : « ويجعل الرجس على الذين لايعقلون » . أما ما ورد فى أعقاب الآيات من مثل قوله « أفلا تعقلون . أفلا تتفكرون » فلا يعيه حصر .

وقد ذاعت بين الناس فى أوربا فى القرن الماضى فرية آثمة ظالمة فحواها أن الاسلام يكتئد طريق كل من ينشد العلم والمعرفة. وأنه يكبت جميع الحركات العلمية ، ويحظر على معتنقيه القيام بأى نشاط علمى مهما يكن لونه ، بل كفر كل من يولى . ذلك أية عناية . وكان على رأس من تولى كبر هذه الدعوى العالم المؤرخ الفرنسى « ارنست رينان Ernest Renan » المتوفى سنة ١٨٩٢ . وقد دفعه الى ذلك العصبية الدينيـة الهوجاء ، فوضع كتابا خاصا اسمه «الاسلام والعلم» ، وتصدى للرد عليه نفر من أئمة المسلمين ، فى مقدمتهم الامام المجاهد جمال الدين الأفغانى .

والحق أن التاريخ الاسلامى الطويل المفعم بجلائل الأمور وعظائم الأحداث ينطق بأن الاسلام لم يحاول قط أن يطمس مدنية أمة من الأمم التى قهرها واستولى على بلادها ، وانما كان دائما يطبعها بطابعه ليجعلها زادا صالحا يفيد المسلمين فى دنياهم وفى آخرتهم .

ولاريب أن مسلكا هذا شأنه ينبىء عن سعة عظيمة فى الأفق، ويدل على درجة كبيرة من التسامح والاعتدال ، ويسوق حجة تدمغ أولئك المتجنين على الاسلام زورا وبهتانا .

ولا مراء فى أن الذى دفع هؤلاء التائنين الى ذلك أحد أمرين أو هما معا :

أولهما : الجهل بحقيقة الدين الاسلامى وسوء فهم المبادىء الاسلامية السامية .

وثانيهما : سوء النية والحقد على الاسلام .

وليس من شك فى أن الاسلام لم يحارب أى لون من ألوان المعرفة على الاجيال . اللهم الا ما كان فيه زيغ أو مروق . وقد حض على طلب العلم بأساليب مختلفة ووسائل متعددة ، وقد أشاد الكتاب الكريم فى مواطن كثيرة الى فضيلة العلم وابراز الهوة الواسعة بين العالم والجاهل .. فشبه العلم بالأنوار والجهل بالظلمات .

وبلغت عناية الاسلام بالعلم أن قرر أن الانسان الذى يخشى الله أكمل خشية انما هو العالم وحده ، قال تعالى : انما يخشى الله من عباده العلماء » وقال : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وقال جل شأنه : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » ، وقال : «وقل رب زدنى علما».

ومراد الاسلام من العلم كل مايرفع الجهل ويقف صاحبه على أسرار الوجود ، قال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، وقال : « وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

والأحاديث النبوية الشريفة تحث فى شدة على طلب العلم ، ومن ذلك قول النبى الكريم « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وقوله عليه السلام « يأتى على أمتى زمان يصبح الرجل فيه مؤمنا ويمسى كافرا الا من عصمه الله بالعلم » . وقوله « اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا . ولا تكن الخامسة فتهلك » ؛ وقوله « قليل لعلم خير من كثير العبادة » .. الى غير ذلك من الأحاديث الشريفة التى لا يتسع المقام لذكرها .

وكما حث النبى على تحصيل العلم نراه ينهى فى شدة عن كتمانه ، ويهدد أعنف تهديد من يكتمونه ولا يسعون فى نشره . ويكفينى أن أسوق هذا الحديث « من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » .

وقد استعمل النبى عليه السلام من ناحية أخرى أسلوب الترغيب لمن يجود بعلمه ولا يألو جهدا فى بذله لكل من هو فى حاجة اليه فقال : ساعة عالم متكىء على فراشه ينظر فى علمه للناس خير من عبادة العابد ستين عاما » . وقال : « أجودكم بعدى رجل علم علما فنشر علمه ، انه يبعث يوم القيامة أمة وحده » . وقصة النبى مع أسرى المشركين فى غزوة بدر معروفة ، فقد شرط على من يعرف القراءة والكتابة من هؤلاء الأسرى أن يعلم عشرة من أبناء الأنصار مقابل فك اساره .

وأحاديث النبى عليه السلام وأعماله فى الحض على التعلم والتعليم فياضة كثيرة . ونحن نؤثر الاكتفاء بهذا القدر لدحض

حجة هؤلاء الذين يتجنون على الاسلام ، زاعمين ــ قاتلهم الله ــ أنه حارب العلم أو وضع العقبات أمام ناشدى المعرفة .

وقد أطلق الدين الاسلامى الفكر من عقاله ، ودعاه الى التدبر والتبصر والتفكير فى السماء والأرض ، وما فيهما من نجوم وشموس وأقمار ونبات وحيوان « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » . وصدق العلى الكبير حين قال : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » .. يدعو الحكيم تبارك وتعالى أولى الألباب ليتبينوا ما فى خلق السموات والأرض ، وما فى اختلاف الليل والنهار من آيات بينات على بالغ قدرته وعظيم تدبيره .

وهذه الدعوة هى الأساس الأول لمختلف العلوم والفنون ، حيث يطلق الفكر لاستخراج هذه الآيات . فالاسلام ينبوع المعارف ومنشئها الأول فى وقت كان العالم هائما فى وديان الضلالة ومتاهة الجهالة ، أنظر الى قوله تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » تره يدعوك الى النظر فى جلائل هذه المخلوقات لتستخلص منها العظة والعبرة .. فهو يدعوك الى النظر فى خلق السموات والأرض ، والى اختلاف الليل والنهار ، ثم النظر فى هذه البحار

التى تجرى فيها الفلك بما ينفع الناس ، ومالها من دور تلعبه فى حياة الكائنات الأرضية . ثم عقب ذلك بما أنزل من السماء من ماء ليدعوك الى بحث علاقة هذه البحار بهذا لماء ، وهل بينهما علاقة السبب بالمسبب .

وهو يدعوك الى النظر فى الزرع ، وكيف تحيا الأرض بعد موتها بالماء الذى ينزل من السماء ، ويدعوك الى النظر فى ارتباط هذه الأرض وحياتها بالدواب التى بثها فيها ، ويدعوك الى النظر فى تصريف الرياح فى كل فصل من فصول السنة ، وتأثير ذلك على الزرع ، حتى يكون لكل زراعة وقتها الملائم لها .

فأى فكر سليم يتدبر هذه الآيات الكريمة ثم لا يستخلص ما فيها من أسرار مكنونة وعلوم تنفع الناس وترتفع الى خير مستوى .

ويقول جل شأنه : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت ، فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » . ولأختر واحدة فقط من هذه العجائب التى أوجب الله تعالى النظر فيها ، وهى الابل . والابل من أعجب ما برأ الله من مخلوقات ، فهى سفينة الصحراء ، وهى أصبر الحيوانات قاطبة على الجوع والعطش . وقد اقتضت قدرة الله العجيبة أن يكون لها معدتان ، احداهما كالخزان تخزن فيه الماء أياما فلا

يعبير سوبه و صعمه ولا بنعص وزنه . وبها قطع لغزاة المسلمون ببيد سسعه مع ححافلهم الجرزه . وفتحوا البـلاد . وثلوا لعروش . ورفعو راية الاسـلام خفاقة فى كل بقعـة وطئتها قدمهم .

و نظر ى نجمل وهو يستنيخ . ثم وهو ينهض ، فيمد عنقه ويرتفع بحمله . فاذ ضربنا طول ما مده من عنقه فى زنة رأسه ضمنا وزن التمل الذى يحمله تماما .. وذلك هو المعروف بنظرية الميزان دى الزمانة .

فهل رأيت أبدع من دلك خلقا ؟ تبارك الله أحسن الخالقين !!
والاسلام يدعو لى التفكير القويم والى تحرير العقل من أغلال التقـاليد . ولذلك نراه ينهى عن تصـديق الأوهام والاكتراث للظنون . ويبين نبعة تحميل العقل اعتقاد ما لم يصل اليه العلم فقال : « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

ولما كان التقليد والخضوع للمعتقدات الموروثة من أشـد العوامل فى صرف الناس عن التفكير والنظر والاستقلال فى تقدير الأمور . فقد حمل الاسلام عليهما حملة عنيفة ، اذ يقول جل وعلا : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون » ويقول: «انهم ألفوا آباءهم ضالين، فهم على آثارهم يهرعون » ويقول فى تصوير حال المقلدين ، مبينا أنه لا يقبل منهم عذر يوم

الدين « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها . حتى اذا اداركوا فيها جميعا (أى تلاحقوا فيها) قالت أخراهم لأولاهم ربنا هـؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون»

وبعد أن حرر الاسلام العقل وحرم التقليد على النحو الذى رأينا عاد فقرر أنه لابد لكل معتقد من المعتقدات أن يقوم على دليل قويم فقـال : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صـادقين » . ومثل هذه الآية كثير فى القرآن الكريم .

ومما اختص به الاسلام من اكبار العقل والعلم وجرى عليه المسلمون فى جميع أدوارهم واعتبروه أصلا من أصول دينهم ، وجوب تأويل نص الكتاب ان أوهم ظاهر ألفاظه مخالفته لهما ، مثال ذلك ماجاء فى الكتاب الحكيم « كل شىء هالك الا وجهه» و « يد الله فوق أيديهم » و « والأرض بعـد ذلك دحاها » ولا يعقل أن يكون لله وجه أو يد ، على خلاف ما يقول المشبهة، وقد أثبت العلم أن الأرض كروية . لذا عمد المسلمون اتبـاعا للأصل المقرر فى دينهم ـ الى تأويل هذه الألفاظ . فأولوا الوجه بالذات ، واليد بالرعاية ، وقالوا ان المراد بالدحو البسط فيمـا يراه الرائى فقط ، لا فى الشكل الحقيقى للأرض .

بهذه الرخصة الجليلة لايقوم تعارض بين الكتاب والعلم ، ولا بين الـكتاب والعقل ، وهى أول ما حدث من تاريخ النوع البشرى من تآخى الدين والعلم.ولذلك بحث المسلمون أحرارا فى

جميع نواحي العلم دون أن يشعروا بتعارض بين الدين والمعرفة. ولن يشعروا بشيء من هذا التعارض ما دامت هـذه هي قاعدة الاسلام الأصولية .

وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين بدأوا يطلبون العلم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من مظانه، ولم يتحرجوا عن أخـذ كل ما صـادفوه لدى غيرهم منـه . ومن الخير أن أسوق في هذا المقام بعض عبارات لعالم منصف من علماء الغرب هو الدكتور « درابر Draper » الأستاذ بجامعة هارفارد بنيويورك من كتابه « التنازع بين الدين والعلم » ، قال : « ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ ميلادية . ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان من الزمان حتى كانوا قد استأنسوا بجميـع الـكتب العلمية اليونانيـة وقدروها قـدرها الصحيح » .. الى أن قال : « كان شـعار المسلمين في بحوثهم الأسـلوب التجريبي ، وكانوا يعتبـرون الهندسة والعلوم الرياضية من معدات علم المنطق والقـارىء لـكتبهم الـكثيرة في الميـكانيكا والأيدروستاتيك ونظـريات الضوء والأبصار يلاحظ أنهم قد اهتدوا الى حلول مسائلهم عن طريق التجربة والمشاهدة بوساطة الآلات . وهذا هو الذي أدى بهم الى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمكتشفين لكثير من آلات التقطير والتصعيد والصهر .. الخ . وهذا بعينه

هو الذى جعلهم يستعملون فى دراساتهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاصطرلاب .. الخ » .

كل هذا والدين فى أوج سلطانه على العقول . فلو كان فيه شيء من مجافاة العلم أو معارضة التطور والرقى العقلى لظهرت آثاره جلية واضحة فى أيامه الأولى .

وأحب أن أقول ان ذلك الاقبـال على العلم حـدث من المسلمين فى عصـورهم الأولى ، لا لأن الاسـلام يسـمح به ولا يعارضه ، ولكن لأن أصوله تؤدى اليـه حتما . وتقتضيه اقتضاء طبيعيا .

وهذا هو السر فى انتقال الأمة العربية كلها من حال متهافتة هينة الى حال تولت فيها زعامة العـالم أجمع فى جميع مجالات النشاط العقلى والعملى فى مدة لاتتجاوز مائتى سنة .

مفهوم الدولة في الإسلام

اذا أمعنا النظر فى منهاج الاسلام فى الحكم أدركنا أن الغاية الكبرى من قيام الدولة الاسلامية هى ايجاد الجهاز السياسى الذى يحقق وحدة الأمة الاسلامية وتعاون أفرادها : يقول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ؛ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون » .

وهاتان الآيتان توضحان أن المجتمع الاسلامى ليس غاية فى ذاته ، ولكنه وسيلة الى غاية كبرى ، هى ايجاد أمة تقف نفسها على الخير والحق والعدل ؛ أو بمعنى آخر تعمل على خلق بيئة اجتماعية تتيح لأفرادها ـ بقدر الامكان ـ أن يحيوا حياة روحية ومادية على النحو الذى رسمه قانون الله الفطرى ، وهو الاسلام .

وقد وضع الاسلام لتحقيق هذا الهدف العظيم شرط هاما هو وجود أخوة قوية تربط بين أفراد المجتمع . وتوجههم نحو الغاية المنشودة ، وقد أرسى الله قواعدها بقوله : « انما المؤمنون اخوة « وأكد الرسول عليه السلام هذه الضرورة فى أحاديث كثيرة انطلق بها لسانه الكريم فى شتى المناسبات . كقوله « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدبعضه بعضا» . وقوله : «المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه . ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته » ، وقوله : مثل المسلم لأخيه المسلم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . وقوله : من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » .

وليس الأساس العاطفى الذى تقوم عليه هذه الأخوة هو الولاء المطلق للقبيلة أو نزعة التفاخر بالآباء والأجداد . فقد نهى الرسول عن ذلك وذمه بقوله : لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، انما هم ليكونن أهون على الله من الجعل (١) » وقوله : «ان الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء» وانما تقوم هذه الأخوة على أساس من التعاطف الانسانى ، والشعور بالمساواة ، ووحدة العقيدة ، والايمان بأن الفرد لبنة فى بناء المجتمع الاسلامى .

---

(١) الجعل : نوع من الخنافس ؛ وهو معروف فى الصحراء العربية . وقد روى الترمذى وابو داود عن ابى هريرة .

ولهذا نرى النبى صلى الله عليه وسلم ينهى عن العصبية فى ألفاظ صريحة قاطعة : « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » . وعندما سأله أحد الصحابة عن معنى « العصبية » التى تخرج المرء من دائرة الاسلام على هذه الصورة أجاب : أن تعين قومك على الظلم » (١) .

وقد بين الرسول عليه السلام أن حب الرجل قومه ليس « عصبية » الا اذا أدى هذا الحب الى ظلم الآخرين ، ولهذا يقول : « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » ، فقال رجل : « يارسول الله ! أنصره مظلوما ، فكيف أنصره ظالما» فقال: «تمنعه عن الظلم فذلك نصرك اياه » (٢) .

وعلى ذلك فان الغاية التى تستهدفها رسالة الاسلام الاجتماعية هى دفع الظلم عن الناس واقامة معالم العدل فيهم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

فالقيم الأخلاقية للمجتمع الاسلامى تقوم على هذهالقاعدة الشاملة : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . وعلى هذا المثل الأعلى للعدالة — مع المسلمين ومع غير المسلمين — يتوقف قيام الدولة الاسلامية . فاذا تنكبت جادة هذا المبدأ القويم

---

(١) رواه ابو داود عن واثلة بن الاسقع .
(٢) رواه البخارى ومسلم عن انس .

انهارت وأصابها الوهن والاضمحلال . وهذه الدولة ليست فى الحقيقة سوى الجهاز السياسى لتحقيق هذا المثل الأعلى .

ان مبررات قيام الدولة فى الاسلام تنحصر فى أن تجعل من شريعة الاسلام القانون المهيمن على شئون الحياة كى يسود الحق والعدل والخير . وتنظم العلائق الاجتماعية والاقتصادية بين الناس بحيث يتاح لكل فرد أن يحظى بالحرية والأمن والكرامة . وبذلك تتحقق الأهداف الأخلاقية التى دعا اليها الاسلام . لا فى مجال العقيدة فحسب ، ولكن فى مجال الحياة العملية أيضا . كما تتحقق لرعايا الدولة غير المسلمين كل مقومات الأمان الفعلى والحرية التامة فى عقائدهم وطقوسهم الدينية ، الى جانب حقوقهم الاجتماعية الأخرى .

فاذا حققت الدولة هذه الأهداف كانت خليقة بأن تتصف بأنها اسلامية حقا ، وأنها « خليفة الله فى الأرض » ، وكان لها أن تكتسب ــ من وجهة النظر الشرعية ــ صفتها القانونية ، أى بأن يكون لها على الناس حق الطاعة والولاء على أساس هذا النص القرآنى القاطع : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

وفى هذه العبارة الموجزة يضع القرآن الكريم عدة مبادىء عامة تتصل بطبيعة الدولة الاسلامية ، هى :

١ ــ ان أول واجبات الدولة تنفيذ الأحكام الشرعية ، وقد أكد ذلك الآية الكريمة « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .

وعلى هذا فان المدونة لايمكن أن تعتبر اسلامية الا اذا كانت أحكام الشريعة فى الأمور ذات الطابع العام هى التى يجب أن تشكل القاعدة التى لايجوز أن تنفذ عنها كافة الاجراءات التى تصدر عن الدولة .

٢ ـ وهذه الأحكام الشرعية التى أشرنا اليها هى أساس بنيان الدولة والمهيمنة على عملها . ولكنها لاتستطيع بطبيعتها الاجمالية المختصرة أن تمدنا بكل ما قد نحتاج اليه لادارة شئون الدولة . ولهذا لابد لنا من أن نضيف بأنفسنا القوانين التى تساير زماننا ومقتضيات حياتنا . وقد أباح لنا الاسلام ذلك على شريطة ألا نبيح لأنفسنا سن القوانين التى تتعارض مع روح الشريعة .. وقد حذرنا الله من ذلك فقال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » .

٣ ـ يلاحظ أن الأمر القرآنى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » يعقبه فى الحال « وأولى الأمر منكم » ؛ أى من جماعة المسلمين . وهذا يعنى أن فرض أية سلطة على المسلمين من خارج جماعتهم لايجعل لها عليهم حق الطاعة بأية حال من الأحوال . بينما تعتبر طاعة الحكومة الاسلامية التى جاءت بالطريق الشرعى واجبا دينيا .

ان طاعة الحكومة التزام من أهم التزامات الرعية نحو الدولة ، وهذا مبدأ أساسى معترف به فى كل المجتمعات

المتمدينة . بيد أنه من الأهمية بمكان أن نعلم أن هذه الطاعة فى الدولة الاسلامية تظل واجبا ما لم تبح الحكومة لنفسها أن تحلل ما حرمته الشريعة ، أو تحرم ما حللته . ففى مثل هـذه الحالة تخلع طاعتها من أعناق الأمة كما نص على ذلك الحديث الشريف « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » (١) .

ان طاعة المجتمع الاسلامى « لأولى الأمر منكم » مشروطة بشرط جوهرى هو طاعة أولى الأمر لله ورسوله . ولهذا كان من واجب المجتمع فى الدول الراقية الاشراف على نشاط الحكومة . وأن يمنحها الثقة اذا سلكت الطريق القويم ، وأن يسحب منها هذه الثقة اذا تنكبت جادة الحق والصواب .

وعلى هذا فان رضا الشعب عن الحكومة وعن تصرفاتها يعتبر من أهم العناصر التى تستند اليها الدولة الاسلامية فى قيامها .

٤ ــ لاشك فى أن ضرورة الحصول على رضا الشعب تفترض سلفا أن تأتى الحكومة الى الوجود على أساس الاختيار الحر من قبله . وهذه دلالة أخرى من الدلائل التى تشير اليها العبارة القرآنية بلفظ « منكم » .. انها تشير بذلك الى الأمة ككل ، وليس الى جماعة أو طبقة معينة . .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر .

وينبثق عن هذا المعنى أنه لكى تتحقق أهداف الشريعة الاسلامية فان رئاسة الدولة لابد وأن تأتى عن طريق الانتخاب ، فان تولى السلطة عن غير طريق الانتخاب يجعل طاعة الأمة غير ملزمة . ذلك بأن هذا الأسلوب فى الوصول الى منصة الحكم ان هو الا لون من ألوان فرض السلطة على المسلمين من خارج جماعتهم .

وهنا يبرز لنا سؤال ـ يبدو صريحا من وجهة نظر الفلسفة السياسية ـ عن المصدر الذى تستمد منه الدولة الاسلامية صفة السيادة. وهو سؤال ليس نظريا فى الواقع كما قد يبدو للوهلة الأولى . وقد لايفكر فيه الرجل العادى مادام النظام السياسى القائم واجراءات الدولة الادارية تيسر له أساليب معيشته وتحقق له التقدم الاقتصادى .

بيد أن الباحث أو المؤرخ لايمكنه أن يتجاهل أن القيم المعنوية التى ينسبها المواطنون لدولتهم ـ ومنها مصدر سيادتها ـ تصبح مع الزمن ذات أثر حاسم بالنسبة لاستمرار سيطرتها الروحية . وعلى ذلك تكون فى النهاية ذات نتائج بعيدة المدى فى السلوك الاجتماعى العام .

ولا مراء فى أى أى نظام سياسى لا يحقق غاياته ـ مهما بلغ من السمو ـ من تلقاء نفسه .. ذلك أن صلاحيته الاجتماعية ترتكز فى النهاية على المضامين الروحية التى يحتوى عليها هذا النظام .

وعلى ذلك نستطيع أن نرد أسباب افتقار المسلمين طوال قرون عديدة للنظام الاجتماعى والروح الوطنيــة الى اضطراب مفاهيمهم بالنسبة للقاعدة الروحية والفكرية التى ترتكز عليهــ الدولة وتستمد منها سيادتها . وربما يفسر لنا هذا الاضطراب السبب فى السهولة التى استسلم بها المســلمون خــلال أحقاب طويلة من الزمن لكل ألوان الاضطهاد والعسف على أيدى حكام مستبدين . ولعل أصــدق مثل على ذلك ماكان يلقــاه الشعب اليمنى ابان حكم الأئمة من أسرة حميد الدين من ضروب الجور والضغط والاستبداد والخداع .

ومن حسن الحظ أن الطبقات المثقفــة فى كثير من الدول الاسلامية قد بدأت تطالب فى الحاح بأن يكون « الشعب » هو المصدر الوحيد للسلطة فى الدولة ، بحيث تكون ارادته وحده هى العامل الحاسم فى تكوين أجهزة الدولة جميعا . وفى ميــدان التشريع كذلك ، وبذلك تكون له السيادة المطلقة على كل شيء فى الدولة . وهذا هو ما يحقق قول الرسول الكريم : « ان الله لايجمع أمتى على ضلالة » (١) . وهذا الحديث الشريف يشبه الى حد كبير ما كان ينادى به الرومان الأقدمون من أن «صوت الشعب هو صوت الاله "Vox Populi, Vox Die (٢) .

وخير مثل لهــذا النظام الســياسى السوى « الجمهورية العربية المتحدة » ، فالاتحاد الاشتراكى يشرف على جميع أجهزة

---

(١) رواه الترمذى عن عبد الله بن عمر .

(٢) Carra de Vaux : Les Penseurs de l'Islam. V. 1. P. 194.

الدولة وهو يمثل جميع طبقات الشعب . هذا الى جانب مجلس الأمة الذى يمثل نصف أعداده على الأقل طبقتى الفلاحين والعمال وبذلك لايبرم أمر من الأمور الا بأخذ حظه الموفور من الدراسة والتمحيص .

ولكن يجب ألا نغيب عن البال أن سلطة المجتمع الاسلامى ليست سوى سلطة بالوكالة [illegible] . فالمصدر الحقيقى للسيادة فى الدولة الاسلامية هو المشيئة الالهية كما جاء فى الشريعة . والله تعالى يقول : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير » .

فالدولة الاسلامية انما تستمد سيادتها من قبل الله ، ولو أنها تقوم نتيجة لارادة الشعب . فاذا سارت فى الطريق السوى الذى رسمه الاسلام كان لها على رعاياها حق الطاعة والولاء كما يتبين لنا من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ؛ ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ، ومن يعص الأمير فقد عصانى » (١) .

وقد كان من سماحة الاسلام وأصالته ومنطقه أن اشترط أن يكون رئيس الدولة مسلما لديه من المزايا ما يخول له أن يؤمر على المسلمين بغض النظر عن اعتبارات الجنس أو القبيلة أو المكانة الاجتماعية .. وفى ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

---

(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابى هريرة .

« اسمعوا وأطيعوا وان أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » (١) . وهذا مستند من قول الله عز وجل : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ولم تضع الشريعة شروطا أخرى لمن يختار لتشغل هذا المنصب ، ولم تضع نظاما خاصا لانتخابه . ولم تحدد هيئة الناخبين ، كما لم تنص على مدة الامارة وعلى هذا فمن الجائز أن تحدد بعدد من السنوات ، ويكون للأمير الحق في اعادة ترشيح نفسه لمنصب الرئاسة . ومن الجائز كذلك أن يحدد بقاء الأمير في منصبه الى عمر معين على شريطة أن يكون حكمه مدة امارته قائما على العدل والكفاية والاخلاص .

كما لاضير في أن تكون مدة الامارة مدى الحياة ، فاذا تنكب الأمير جادة الحق والخير كان عليه أن يتنحى عن منصبه وحل عزله . ويعفى من منصبه كذلك اذا ما ثبت عجزه عن ادارة شئون الدولة بسبب اعتلال في صحته أو خلل في قواه العقلية مثلا .

كل هذه التفاصيل وأمثالها يصطنعها المجتمع نفسه وفق ما يخدم مصالحه ويحقق حاجات زمانه .

ومن خلال هذا المجال الرحب لسن تفاصيل الدستور تبدو لنا مرة أخرى تلك المرونة السامية التي هي من خصائص النظام السياسي في الاسلام .

---

(١) رواه البخاري عن انس .

وهكذا رأينا أن شريعتنا الغـراء قد تعمـدت الا تعـرض لتفـاصيل التشريعات الخاصـة بحاجاتنا الدسـتورية المتنوعة المتغيرة مع الزمن

والواقع أن حاجتنا الى سن القوانين الجارية المناسبة لـكل عصر قد كفلتها الشريعة الاسلامية بسعة افقها وشدة مرونتها واهتمامها بالمسائل العامة دون التفاصيل والفروع . ولهذا ترك الشـارع للأمة حق سن القوانين الملائمة لمقتضيـات الزمن عن طريق الاجتهاد ، على شريطة ألا يتعارض ذلك مع روح الشريعة.

ومما لا شك فيه أنه فى المسائل التى لها مسـاس مباشر بالجانب العـام من حياتنا لايمكن أن يترك سن تلك القـوانين الاجتهادية للأفراد يعالجه كل على هواه ، بل لابد أن ينبثق ذلك عن جمـاعة من المتفقهين فى الدين ، معروفين بالتقوى وسـداد الرأى وثقوب الفكر ، تـكل اليهم الأمة القيام بهـذه المهمة . ولا بأس من أن يستهدى المشرعون باجتهاد الفقهاء المتقدمين فى أية مسألة تعرض لهم . وبذلك يمكن اسـتعراض أى موضوع يبحث من زوايا مختلفة .

وقد أشار الله تعالى الى ذلك اشارة حاسمة بقوله فى سورة الشورى « وأمرهم شورى بينهم » . وهذا النص القرآنى يجب

اعتباره المادة الأساسية الفعالة فى التفكير الاسلامى بصدد مسألة ادارة الدولة . وليس من العسير علينا أن ندرك أن هـــذا النص يمتد أثره بحيث يشمل كل صـــغيرة وكبيرة من دقائق حيـــاتنا السياسية . وهو من الوضوح فى معناه والاطلاق فى لفظه بحيث أن أية محاولة للتعسف فى تأويله ستبوء بالاخفاق .

ان كلمة «أمر» التى وردت فى النص تشير الى كافة الأمور ذات الطابع العام ، ومنها بطبيعة الحال القوانين التى تنظم أمور الدولة . ومهمة سن هـــذه القوانين لابد أن تستند الى مجلس شورى تختاره الأمة من ذوى الألبـــاب من علماء الدين الأفذاذ الأتقيـــاء .

والشورى دعامة قوية من الدعائم التى قامت عليها الدولة فى الاسلام . وليس من الميسور ، بل ليس من المعقول أن يجتمع جميع أفراد الأمة فى صعيد واحد ليتشاوروا فى أمورهم ، ولذا كان عليهم أن ينتخبوا من يمثلهم فى مجلس محدود العدد يتولى هذه المهمة .

ولا يمكن أن يتم تعرف رأى الأمة وتحقيق مبدأ الشورى بغير طريق الانتخاب العام ، اذ أنها الوسيلة الوحيـــدة أن نظهر عن طريقها مزايا المرشحين ، ويترك بعدها للشعب حق الاختيار .

ولم تتعرض الشريعة لطريقة الانتخاب ، وهل يكون مباشرا أو غير مبـــاشر ، وهل يقوم على أســـاس التقسيم الاقليمى أو

النسبى ، وما الى ذلك من التفاصيل .. كل ذلك تركته الشريعة لقرار الأمة ينظمه كيف تشاء .

وهناك أمر خليق بالذكر فى هذا المجال ، وقد فطن اليه رسول الكريم . وهو أنه أوجب على كل من يتقدم للمناصب الهيئة الا بسبب الوظيفة أو ينصيب أصوات الناخبين .. يقول عليه السلام : « لاتسأل الامارة . فانك ان أعطيتها عن مسألة وكلت اليها ، وان أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها » (١) .

وفى ضوء تعاليم الاسلام يمكن القول بأن رسول الله قد قصد دون شك انه لابد من عون الله ورعايته لكى يقوم الانسان بأداء عمله . وهذا يعنى أن تخلى العناية الالهية عن المرء قمين بأن يجعل عمله بوارا وجهده خسارا مهما بلغت درجة كفايته . ولكى يجعل النبى صلى الله عليه وسلم هذا الأمر أكثر وضوحا أبى أن يعطى انسانا وظيفة سألها لنفسه..فقد سأله أحد الصحابة أن يبعثه واليا على أحد الأمصار فأجابه قائلا : « انا والله لانولى على هذا العمل أحدا سأله ، ولا أحدا حرص عليه » (٢) .

٤

وقد ذكرنا أنه لزام أن يكون بجانب رئيس الدولة مجلس منتخب للشورى ، ويناط اليه القيام بسن القوانين للمسائل ذات

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن عبد الرحمن بن سمرة .
(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابى موسى .

الطابع العام ، ولاسيما الأمور التى لم توضع لها أحكام معينة فى نصوص القرآن والسنة .

ولكن من غير المحتمل أبدا أن تتفق وجهات نظر أعضاء المجلس اتفاقا تاما فى كل مسألة تعرض عليهم . وكذلك من غير المحتمل أيضا أن تصدر قراراتهم بجميع ... بالنسبة للمشاكل التى تحتاج مواجهتها ... من قوانين جديدة .

واختلاف الآراء بين الناس أمر طبيعى ، اذ لا يمكن بحال من الأحوال ألا يتأثر التفكير البشرى بالدرجة ... والبيئة الاجتماعية والتجارب السابقة التى تعرض لها المفكر .. ذلك بأن هذه العوامل جميعا تتعاون معا فتكون ما نسميه « بالشخصية البشرية » المتميزة بخصائص فردية .

والواقع أن الاختلاف فى الرأى يؤدى الى التقدم فى مضمار الحياة ، اذ أنه من خلال الاحتكاك الناجم عن صراع الأفكار ، ومن خلال المعارك العقلية التى تخوضها الآراء المتباينة تتفتح الدروب المتعددة التى تفضى حتما الى الحل السديد المستقيم . ولعل هذا ما عناه سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام بقوله : « اختلاف علماء أمتى رحمة » (١) .

اذن فمن المتوقع ألا تحظى قرارات هذه المجالس التشريعية فى الدولة الاسلامية باتفاق اجماعى عليها ــ شأنها فى ذلك شأن كافة المجالس التشريعية فى العالم . ولهذا فان علينا أن نرضى بصدورها بأغلبية الأصوات .

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ص ١٥٢ .

ولا بأس فى أن تكون الأغلبية البسيطة حاسمة فى القرارات التى تتناول مسائل عادية . على أنه من الأفضل أن تشترط أغلبية لثلثين فى الأمور ذات الأهميـــة الخاصة كالتصويت على اقتراح بسقاط الحكومة . أو مواد الدستور الجديد ، أو تعديل الدستور ، أو اعلان الحرب ، أو ماشابه ذلك من الأمور .

ولــكن كثيرا من المسلمين فى عصرنا يرفضون ـــ بسبب الفشل الذى تعانيه أغلب «الديموقراطيات» الحديثة فى الغرب ـ أن تسيطر هذه العملية الحسابية القائمة على مجرد عد الأصوات على النشاط وسن القوانين فى الدولة الاســـلامية ، وحجتهم فى ذلك أن تأييد الأكثرية لاجراء قانونى معين لايعنى دائما أن هذا الاجراء اجراء صالح . فمن الممكن جدا أن تقع الأكثرية فى الخطأ برغم أنها أكثرية مخلصة فى نواياها ، بينما تكون الأقلية هى التى على صواب .

والمعروف أن العقل البشرى ليس معصوما من الزلل ، وأن الناس لايستجيبون دائما لنداء الخير والحق والصواب ، وتاريخ العالم يفيض بالأحكام الخاطئة التى تردت فيها أكثريات أنانية أو مخدوعة برغم تحذير أقليات بصيرة حكيمة لها .

ولــكننا ـــ مع ذلك ـــ لانستطيع أن تقول انه من اليسير أن نجد بديلا لمبدأ الأخذ بأغلبية الأصوات فى الهيئات التشريعية. وقصارى ما نقدر أن نقوله هو أنه اذا ناقش جمع من النـــاس قوامه أفراد معقولون مســـألة معينة فان من المتوقع أن تصـــل

أغلبيتهم فى النهـاية الى قرار صـائب أو أقرب مايكون الى الصواب .

ومن أجل هـذا حض الرسول الكريم على اتبـاع رأى الأغلبيـة فقال : « اتبعوا السواد الأعظم (١) » . وقال عليـه الصلاة والسلام : « عليكم بالجماعة والعامة (٢) » .

والواقع أن العقل البشرى لم يستطع حتى الآن أن يبتكر وسيلة يصل بها الى اتفاق حول مسألة من المسائل خيرا من مبدأ الأخذ برأى الأغلبية . ولاشك أن الأكثرية قد تخطىء . ولـكن لاشك أيضا أن الأقلية قد تخطىء كذلك . والحقيقة التى لامراء فيها أن العقل البشرى بما فطر عليه من نقص وافتقار الى الكمال قد جعل الوقوع فى الخطأ أمرا لايمكن تجنبه فى الحياة البشرية.

وعلى ذلك فانه ليس لنا الا أن نتعلم عن طريق الأخطـاء والتجارب ، وما يتلو الوقوع فى الخطأ من رجوع الى الصواب وتصحيح للأخطاء .

وقرار الأغلبية يعتبر ملزما لكل فرد من أفراد الأمة ، حتى الأغلبية التى صوتت ضده . ولهذا قال الرسول الكريم : « يد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ فى النار (٣) » ، وقال عليه الصـلاة والسلام : «من فارق الجماعة شبرا فقد خلع الاسلام من عنقه(٤)»

(١) رواه ابن ماجة عن عبد الله بن عمر .
(٢) رواه احمد بن حنبل عن معاذ بن جبل .
(٣) رواه الترمذى عن عبد الله بن عمر .
(٤) رواه ابو داود فى سننه وابن حنبل فى مسنده عن ابى ذر .

وبناء على ذلك فان الحكومة اذا ما حققت الغـايات التى ألقتها الشريعة على كاهلها فان لها الحق المطلق فى الحصول على ولاء المواطنين جميعا . ولها عليهم حق « السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره » كما يقول الرسول عليه السلام .

وعلى المسلمين أن ينفروا وراء الحكومة الشرعية يؤيدونها ويؤازرونها ويضحون من أجلها بكل رغائبهم وبكل ما يملكون من متاع الدنيا . بل وبحياتهم أيضا « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

ويترتب عـلى ذلك أن الحكومة التى تحكم باسـم الله ورسوله ، وتلتزم بأوامر الشريعة لها الحق فى أن تضع يدها على كل ما يملكه الشعب فى أى وقت تتطلب فيه مصلحة الأمة وسلامة البلاد مثل هـذا الاجراء . أى أن للحكومة الحق فى أن تفرض ـ فضلا عن الزكاة التى نصت عليها الشريعة ـ ضرائب اضافية الى أى حد تراه ضروريا لصالح الشعب ، وأن تفرض كلما دعت الحاجة الى ذلك قيودا على الملكية الشخصية كبعض العقارات أو وسائل الانتاج أو مصادر الثروات الطبيعية بقصد اخضاعها لاشراف الدولة واتخاذها كمنافع عامة . وكذلك للحكومة الحق فى أن تفرض التجنيد الاجبارى لجميع الأفراد اللائقين للخدمة العسكرية للدفاع عن الوطن عندما تقتضى الضرورة ذلك .

أثر العرب في العلوم والآداب

كان العرب في العصور الوسطى ابان مجدهم سادة العالم ينشرون العلم والعدل والخير في جميع الأصقاع التي هبطوها. وكان أهل الغرب آنذاك يتخبطون في دياجير الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والشر المستطير .

ولقد حفظ أجدادنا تراث الأقدمين من هند وفرس ويونان، وزادوا عليه وجودوه . ثم انتقل بنوره وخيره الى العالم الآخر، وصدق العلى الكبير حين قال : «وتلك الأيام نداولها بين الناس».

ففي عصر العرب الذهبي سكت العالم الأول : عالم الهند والفرس واليونان ، ونام في اغفاءة طويلة لم يستيقظ منها .

ويخطىء كثير من المؤرخين الذين يعتقدون أن العصر العباسي هو بداية عصر النهضة والعلم عند العرب ، والواقع أن خيوط هذا الفجر المضيء بدأت تلمع منذ بدء الدعوة الاسلامية. فالقرآن الكريم يكرم العلماء ويرفعهم درجات بقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » ، وقوله : « يرفع الله

الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . ويحث نبى الاسلام على طلب العلم فيقول : « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ، ويقول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»

وقد أخذت هذه الدعوة سبيلها فى العهد الأموى ، حتى كان من هؤلاء كثير ممن نقلوا العلوم الى العربية ، وأتقنوها ، ونشروا ما وصلوا اليه قولا وعملا

فهذا خالد بن يزيد بن معاوية يكتب الى أبيه — وكان قد سافر لطلب العلم وبخاصة الكيمياء — يبشره بنجاح سعيه وبلوغ أربه بقصيدة لطيفة يقول فيها :

أيا راكبا نحو الشآم عشيه
يؤم دمشقا قف تحمل كتابيا

وبلغ يزيدا حين يتلو رسالتى
وقل : خالد قد نال ما كان راجيا

ألا قد ملكت الشمس والبدر عنوة
وحزتهما من بعد طول عنائيا (١)

ويقصد بالشمس الذهب ، وبالبدر الفضة ، وكانت صناعة الكيمياء آنئذ قائمة على أساس تحويل المعادن الخسيسة الى المعادن النفيسة : الذهب والفضة .

---

(١) المستطرف للابشيهى ٢/٢٠٧ .

ثم كان العصر العباسى ، عصر النقل والترجمة ، فأنشئت من أجلهما الدواوين واستقدم العلماء ، وأغدقت عليهم الأموال، ونالوا الحظوة والتكريم لدى الخلفاء ، ولاسيما المأمون، فأقبلوا على العلوم الأجنبية يترجمونها الى العربيـــة عن اليونانيـــة والسريانية والفارسية والهندية .

ولم يكد يستقر الأمر بانتهـــاء دور النقل والترجمة حتى كانت حضارة العرب قد تفتحت براعمها ، واخضرت أغصانها ، وأينعت ثمارها ، وتضوع عبيرها ، يملأ العالم العربى والاسلامى لينتشر منه بعدئذ الى العالم الغربى ، فينير عقولا طمستها ظلمة الجهل ، ويفتح قلوبا كانت عليها أقفالها . ويقول العالم «دوزى» فى كتابه « تاريخ المسلمين بأسبانيا » : لولا العرب لتأخر عصر النهضة فى أوربا عدة قرون (١) .

ولقد لمع العرب فى جميع الميادين العلمية . وفى الوقت الذى كان فيه الشعراء والأدباء والفقهاء يقومون بأدوارهم فى نهضـــة العرب الروحية والنفسية والخلقية كان العلماء فى كل الميـــادين يقومون بقسطهم من البحث والنقل والتجويد . لم يدعوا بابا الا طرقوه ان لم يكونوا قد فتحوا فى العلم أبوابا جديدة ويقول المستشرق « ليفى بروفنسال » : ان العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب فى الجبر . والواقع أن كثيرا من النظريات المتأخرة جاءت أسسهـــا الأولى على ألسنة علماء العـــرب وذكروها فى

(١) Dozy : Histoire des Musulmans d'Epagne, P. 315

مصنفاتهم (١) » وقد سمعت من بعض علماء الرياضيات عندنا أن هناك تشابها واضحا بين نظرية « اينشتاين » فى الجاذبية وآراء الفارابى .. فهل كان هذا من توارد الخواطر ؟ ليس ببعيد أن يكون القبس الذى أشع من علوم العرب قد مهد الطريق أمام المتأخرين . فالتقت خواطر « آينشتاين » بخواطر الفارابى ، مثلما التقت آراء « دانتى » شاعر ايطاليا العظيم فى رواية « الجحيم » بفلسفة أبى العلاء المعرى فى رسالة الغفران . وان الدهشة لتعقد ألسنتنا فى شىء غير قليل من الاجلال والاكبار حينما نسمع الفارابى يتنبأ بصعود الانسان الى الفضاء فيقول :

محيط السموات أولى بنا فلم ذا التزاحم فى المركز

وقد كان هذا العالم العربى العظيم فيلسوفا وطبيبا وموسيقيا . وكان بارعا فى هذه الفنون كلها . وقد بدأ حياته بداية بسيطة متواضعة ، اذ بدأها بقراءة شىء من بضاعةالوراقين على ضوء قناديل الطريق ، ثم كان ماكان من أمره ، فعظم شأنه وذاع صيته . وقد صنف كتابا فى احصاء العلوم يعتبره كثير من الباحثين أول موسوعة وضعت فى العالم .

والحق أن فضل العرب على الانسانية فى ميادين العلوم والفنون لاينكره الا جاحد مارق أو ظالم متعصب .

ففى حقل العلوم الأساسية مهر العرب فى « الفيزياء » أى علم الطبيعة ، حتى لقد قيل ان كتب الكندى كانت أساس

Levy Provençal : L'Espagne Musulmane au Xème siècle. P. 91.

مؤلفات « روجر بيكون Rager Bacon » وقد اهتدى العالم العربي ابن يونس الى الرقاص قبل « جاليليو Jallia » بسبعة قرون . وقصة الساعة التي أهداها الخليفة هارون الرشيد الى الامبراطور « شارلمان » تدل على تفوق العرب في الفيزياء .. فقد ذعروا حينما سمعوها تدق ظنوهم ضربا من السحر ، أو أن فيها مسا من الجن . وأورد الخازني في كتابه « عيون المسائل في أعيان الرسائل » جدولا عن الأوزان النوعية للذهب والفضة والزئبق والرصاص والنحاس والحديد والزيت واللبن وغيرها ، وقد قاسها بالنسبة للماء العادي ، فجاء فيها خلاف يسير عما هي عليه اليوم حيث تقاس بالنسبة للماء المقطر. واستطاع البيروني الذي يعتبره بعض الغربيين أعظم عبقرية في التاريخ ابتداع طريقة أخرى لايجاد الأوزان النوعية أكثر اتقانا من الأولى . ولعل عبقرية الحسن بن الهيثم أعظم دليل على فضل العرب على العالم في الفيزياء البصرية خاصة ، حتى يقولون انه من أعظم مؤسسي هذا العلم شأنا وأكبرهم أثرا .. فقد كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع الأول عند الأوربيين حتى القرن السادس عشر ، ثم جاء من بعده من نسج على منواله و قتفى أثره . فما بدأ به ابن الهيثم أكمله العالم « اسحق نيوتن » .

وفي حقل الرياضيات نبغ كثيرون ، لعل أشهرهم الكاشي واضع أسس الكسور العشرية ، والخوارزمي الذي ظل كتابه الذي ألفه في عصر المأمون عن الجبر والتقابل معينا لعلماء الغرب ردحا طويلا من الزمان ، ولسنا مغالين اذا قلنا ان الخوارزمي

يعتبر واضع علم الجبر ، وهذا ما يقوله الدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور محمد موسى أحمد اللذان نشرا مخطوطةالجبر والمقابلة للخوازرمى . وقد وجداها محفوظة فى جامعة أكسفورد. وفى هـذا الكتاب شرح المؤلف المعـادلات والجذور والرموز الرياضية . ومن هؤلاء أيضا ثابت بن قرة ، وابن حمزة ، ومحمد البغدادى ؛ والطوسى الذى ألف فى الرياضـيات ، ولا سيما فى المثلثات الهندسية : كتبا عديدة كما يقول حاجى خليفة فى كشف الظنون ، وأخذ عنها الأوربيون المتأخرون .

ولقد ذاعت علوم الفلك فى عهد أبى جعفر المنصور ، وكان للعرب فضل تطهيره من أدرانالتنجيم . وفى عصر المأمونالذهبى قام بنو موسى بن شاكر بحساب طول درجة من خط النهـار ، وثبتت كروية الأرض . وعرف طول السنة الشمسية ، وأقيمت المراصد ؛ واستعملت فيها الآلات . وكان أحد هذه المراصد فى الشماسية ببغداد ، والاخر على قمـة جبل قاسيون فى دمشق . كما أنشأ الفـاطميون مرصدا على جبل المقطم عرف بالمرصـد الحاكمى . وأنشىء غير ذلك مراصد أخرى .

ويدل على ما أحرزوه من تقدم فى علم الفلك تلك الأسماء التى وضعوها للنجوم والأبراج ، والتى لاتزال باقية بألفـاظها تقريبا فى كل اللغات .. فالعقرب "Acrab" ، والجدى "Algedi" والطائر "Altair" ، وابط الجوزاء "Betelgeuse" ، والسمت "Zemith" كلها أسماء عربية نقلت كما هى الى اللغات الأخرى.

وظهر فى العرب أعلام من الجغرافيين . ويعتبر الغربيون كتاب الادريسى فى الجغرافيا أعظم وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى ، ويعدون كذلك معجم البلدان لياقوت الحموى منجما غنيا جدا للمعرفة ، وليس له — فى نظرهم — نظير فى سائر اللغات (١) . ووضع أبو الفدا « أمير حماه » كتاب تقويم البلدان الذى ترجم الى اللاتينية فى القرن الثامن عشر ، وكان مرجع كثير من علماء الغرب .

ويقول «جوستاف لوبون» فى كتابه (حضرة العرب) : لقد قضى الادريسى شطرا من حياته فى اعداد أول خريطة عالمية صحيحة مبنية على الأصول العلمية والحقائق الفنية الثابتة التى لاتختلف كثيرا عما هو معروف فى عهدنا هذا » (٢) .

ولا بأس من أن نقف وقفة قصيرة عند الادريسى هذا .. فحينما أفل نجم العرب عن صقلية ، وحكمها النورمانديون وجدوا أنه لا مناص لهم من ادخال اللغة العربية بين اللغات الرسمية ، وقربوا العلماء العرب ، وحافظوا على آثارهم ؛ ودعا الملك « روجر الثانى » الشريف الادريسى للتأليف فى الفلك فوضع كتابه الشهير « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ،ووضع خريطة العالم التى أشرنا اليها ، وتوقع وجود أمريكا فى الطرف الثانى من الأرض قبل اكتشافها بقرون . وقد نشرت مجلة « نيوزويك » الأمريكية فى عددها الصادر بتاريخ ١٠ من ابريل

---

(١) انظر كتاب « العلوم عند العرب » ص ١٥٣ تاليف قدرى حافظ طوقان .
(٢) انظر حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر .

سنة ١٩٦١ أن أحد أساتذة جامعة « بنسلفانيا » أورد بعض الدلائل على أن العرب اكتشفوا القارة الأمريكية قبل كولومبس» بأربعة قرون .

أما في ميدان الكيمياء فقد برز العرب فيه أيما تبريز ، يشهد علماء الغرب بأن جابر بن حيان العالم العربي يعد المعلم الأول في الكيمياء . وأن له في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق (١)، وله قول مأثور : ان واجب المشتغل في الطبيعيات والكيمياء هو العمل واجراء التجارب ؛ وأن المعرفة الحقيقية لا تحصل الا بهما (٢) » . وفي عهده عرف التقطير والتصعيد والتكليس والترشيح ، وكلها عمليات كيمياوية فيزيائية . وعرف العرب كذلك حمض الكبريت الذي ينسب اكتشافه الى أبي بكر الرازي . كما عرفوا حمض الآزوت ، والصودا الكاوية ، والفحمات المعدنية ؛ وكثيرا من المواد الكيماوية الأخرى .

ولو رجعنا الى ما أثر عنهم لوجدنا وصفا للتجارب الطبيعية والعمليات الكيمياوية لا يقل دقة عما يقوم به علماء اليوم من تجارب وعمليات .

ويعتبر الغربيون بأن العرب كانوا أول من أنشأ مصانع الورق في الأندلس وصقلية ؛ ومنها انتشرت هذه الصناعة في أوربا (٣) .

---

(١) العلوم عند العرب ص ٢٠٥ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) تاريخ العرب تاليف فيليب حتى ٥١/١ (مطول) .

وأما فى نطاق علم الحيوان فلا ينكر أحد أن العرب كانوا من المبرزين فى هذا العلم .. وتجاربهم فى هذا البـــاب معروفة مذكورة . فقـــد عرفوا التهجين وتحســـين النسل والحيوانات اللبونة . والخيول العربية الأصيلة ذات الشهرة العالمية ما تزال شاهدة على ذلك حتى اليوم . ولعل كتـــاب الحيوان للجاحظ يعتبر مـــن أروع ماكتب فى علم الحيوان دقة وصـــف واحكام تجارب وطلاوة أدب .

وكان هذا العالم العربى « الجاحظ » من طراز عجيب يدعو الى تقديره حقا . فقد كان باحثا دقيقا مخلصا فى تجاربه .. كان يقطع بعض أعضاء الحيوان ويلقى بها فى السم ويتأمل ،ويستقصى عن البيض ، ويذبح الحيوان ليفتش فى جوفه ؛ أو يدفنه باهالة التراب الخفيف عليه ليعرف حركاته ؛ أو يشق بطن الأنثى ليعرف عدد الأجنةوموضع كل واحد منها ،أو يجمع الأضداد ليشاهدها وهى مشتبكة فى قتال عنيف . وصدق الوزير ابن العميد حين قال : « ان كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا » . وقد جمع الجاحظ طريقته فى البحث بتلك الكلمات التى أوردها فى مقدمة كتاب الحيوان : « جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة. وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبين الصدق سببا ؛ وحبب اليك التثبت ، وزين فى عينيك الانصاف » .

وأما فىميدان العلوم الزراعية فيكفينا فيه ماذكره الدكتور أحمد عيسى فى كتابه « تاريخ النبات عند العرب » .. فقد ذ...

أنهم قاموا بتطوير الزراعة وتحسين النبـاتات عامة ، ودرسوا مختلف الحشائش والشجيرات والأشجار والبـذور والثمار ، وقارنوا فيما بينها . عرفوا النباتات ذات التسكنين ، وأدركوا طرائق اكثارها . ويذكر المؤلف بالتفصيل تقدم الزراعة بالأندلس خاصة على يد العرب ؛ وضروب على ذلك أمثلة عديدة ، من أهمها ما ذكره عن نبـاتات الزينة مستشهدا بقـدرة العرب على أن يستولدوا وردا أسـود اللون بطرائق التطعيم المتوالى ، وأن يحصلوا على نباتات تكتسب صفات العقاقير فى مفعولها الدوائى ، وهى طرائق تدعيها اليوم بعض المؤسسات الزراعيـة فى أمريكا وفرنسـا وغيرهما . ولا ينكر علمـاء أوربا أن كتـاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية الذى وضعه ابن البيطار يعد من أعظم الكتب التى ظهرت فى علم النبات ، وقد ترجم هذا الكتاب الى اللاتينية والفرنسية والألمانية وغـيرها ، واعتمد عليـه العلماء الغربيون ، وأخذوا عنه الشىء الكثير .

وأما فى ميدان الطب فكان العرب هم الفرسان السباقين ، وكانت مؤلفاتهم هى المعتمد الأكبر فى الطب لدى علماء الغرب لعدة قرون . وفى ذلك يقول العلامة المنصف «جوستاف لوبون»: « لقد كانت كتب العرب المرجع الوحيد للدراسـة الجامعية فى أوربا أكثر من خمسة قرون ، وظلت علوم الطب خاصة المصدر الوحيد للدراسة خلال ثمانية قرون ، حتى لقد استمرت جامعة

« مونبلييه » تستشهد بآراء ابن سينا فى قانونه الى أواخر القرن الماضى (١) » .

وقد وجد بين المنصفين من يقدر فضل العرب على الانسانية فى مختلف العلوم ، فخصصت جامعة « برنستون » الأمريكية جناحا فخما لمآثر الطبيب العربى الفيلسوف أبى بكر الرازى ، وأنشأت بجانبه دارا لتدريس العلوم العربية ونقل آثارها المخطوطة الى اللغة الانجليزية .

ولعل الرازى كان أول من أنشأ علم الطب التجريبى ، اذ كان يجرى تجاربه على الحيوانات ، فيجرع القردة الزئبق ، ويختبر تأثيره وتأثير الأدوية على الحيوانات ، ويسجل جميع ما يشاهده بدقة عجيبة . كما كان يعنى بأن يستمع الى المريض وهو يسرد قصته ، ويسأله عن أحواله الحاضرة مفصلا ، وعن سوابقه الشخصية والوراثية ، ويدون جميع ذلك فى سجل خاص يحفظه للرجوع اليه عند الحاجة كما يفعل الأطباء اليوم.والرازى هو أول من عرف الحصبة والجدرى وطرائق المعالجة النفسية .

وأخبرنى أحد الأطباء العرب أن ابن الخطيب ، الطبيب والفيلسوف الأندلسى ، هو أول من أدرك أن المرض ينتقل بالعدوى قبل أن تكتشف الجراثيم ، اذ لاحظ أن من خالط مريضا مصابا بالحمى أو لبس ثيابه ابتلى بالمرض ، ومن لم يخالط نجا من العدوى .

(١) انظر كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص ٢٠٤ .

أما الفيلسوف الطبيب ابن سـينا فقـد أبدع فى وصف الأعضاء وأمراضها . والأجهزة وآفاتها ، والعلل ومعالجتها وصفا لايزال موضع الاعتبار فى التشخيص حتى اليوم .. فقد وصف القرحة الدرنية ، و لتوتنج الكبدى و الكلوى . والتهاب الرئة والجنب . والتهاب الدماغ والسحايا ، ولفت الأنظار الى تبـدل شكل الأصفر عند المسلولين .. الى غير ذلك مما جاء فى كتبـه التى ألفها فى الطب شعرا أو نثرا .

وقـد عرف العرب التشريح ومارسوه ، ويقول العـلامة ب.ج. أندريه فى كتابه « الاسلام والعنـاصر البشرية » : كان الأطباء العرب فى القرن العاشر يعلمون تشريح الجثث فى قاعات مدرجة خصصت لذلك فى جامعـة صقلية (١) . واكتشف ابن النفيس الدمشقى المصرى الدورة الدموية الصغرى ، ونقلهـا عنه « هارفى » الانجايزى وعزاها لنفسه .

وقد أورد صاحب كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» أكثر من ثلثمائة طبيب عربى . هـذا عدا كثير ممن لم يتح لهم الحظ الشهرة وذيوع الصيت .

ويعترف الغربيون بأن العرب استحدثوا أشـياء كثيرة فى الطب ، وأوجدوا علم الصيـدلة الكيمياوية وعرفوا كثيرا مـن النباتات الطبية جاءت فى كتب ابن سينا وابن داود وابن البيطار، منها على سبيل المثال : الـكافور "Camphre" ، والزعفران

---

(1) P. J. André : L'Islam et Les Races. Vol. 2. P. 198.

"Safran" والخزام "Alkhosam" والمر "Myrrhe" ، والمن "Manne" والمسك "Musc" والترياق "Thériaque" والتمر هندى "Tamar Indien" والقطن "Coton" والكحول "Alcool" وغيرها من الألفاظ الكثيرة التى نقلها الغربيون عن العرب وظلت محتفظة بأسمائها العربية (١) كما رأينا .

وهكذا نرى أن العرب كانوا ذوى أثر بليغ وفضل كبير على الانسانية فى ميادين العلم والمعرفة .. ويقر بذلك منصفون من علماء الغرب مثل العلامة « روم لاندو » فى كتابه « الاسلام والعرب » اذ يقول : « لقد كان من شأن الاغريق أن نظموا وعمموا ووضعوا النظريات ، ولكن البحث وجلب المعرفة الايجابية والطرائق الدقيقة فى العلم والملاحظة الدائبة الطويلة ، أمور تتعارض والمزاج الاغريقى ، وهى التى أدخلها العرب فى أوربا . فالعلم الأوربى مدين بوجوده للعرب (٢) .

ويقول « جورج سارتون » : انه لعمل عظيم جدا أن ينقل الينا العرب علوم اليونان وفلسفتهم ، وأن يزيدوا عليها حتى أوصلوها الى درجة مرموقة من النمو والارتقاء » ؛ ثم يمضى سارتون قائلا : « ... وعندما أراد الغرب ـ بعد أن وصل الى درجة كافية من النضج ـ أن يجدد اتصالاته بالفكر القديم أدار

---

(١) انظر كتاب العلوم عند العرب ص ٢٠٥ وما بعدها .

Rom Landau : Islam and The Arabs. P. 165.

رأسه قبل كل شيء لا الى المصادر الاغريقية . وانما الى المصادر العربيـــة (١) » .

ويقول العلامة « كونديه » في كتابه « تاريخ الحكم العربي في أسبانيا » : ان العرب كانوا أساتذة أوربا كلها في جميع فروع المعرفة ؛ فقد انتشرت اليها علومهم من مصر وسوريا ابان الحروب الصليبية ، ومن الأندلس ــ وهي أكبر مركز للتصدير ــ انتشرت علوم العرب بوساطة التراجمة (٢) .. » .

أما في الحقل الفلسفي فقد كان لهم فيه القدح المعلى ، اذ درسوا الفلسفة الاغريقية دراســة واعية وهضموها وتمثلوها ، واستنبتوا لأنفسهم فلسفة اســلامية خاصة تتركز في دلالتهـا الكبرى .. فهي تدل أكثر ما تدل على رغبـــة العرب الحارة في المعرفة ونشرها . والتقاط الحكمة من حيث توجد ، كمـــا تدل على شدة ايمانهم بالعقل وبما يؤدي اليه . وكلامهم المأثور من أقدم العصور الى اليوم يشير بوضوح لا مزيد عليه الى وجوب التحلي بالمعرفة والاستزادة من العقل .

تلك هي الروح التي أملت على العرب نبش كنوز الاغريق وهي التي دفعتهم الى احياء ما اندثر من حكمة الهند وفارس . فهم بهذا المعنى « مبــدعون » وليسوا « نقلة » ، وهو المعنى الصحيح الذي يكمن وراء أعمالهم وجهودهم وآثارهم الفلسفية والعلميـــة .

---

(١) المصدر السابق .

Condé : Histoire de la Domination des Arabes en Espagne. P. 96.

والواقع أن الجو الذى خلقه العرب . وفيه نشأ المفكرون والفلاســفة من كل جنس وملة وبلد هو الذى أتاح لفلاســفة الاغريق أنفسهم أن يعودوا الى الحياة بعد أن ران على آثارهم ركام كثيف من النسيان .

ونحن اذا نظرنا الى الاسلام كثورة دينية وجدنا أنه حركة فكرية أيقظت العــرب على واقعهم الاجتماعى والســياسى فى مستهل القرن السابع الميــلادى ، وحملتهم على اعادة النظر فى معتقداتهم وتقاليدهم وعاداتهم وأخلاقهم . فآمن منهم من آمن ، وأصر منهم من أصر على ما كان عليه ؛ ولكنه حقق انتصارا رائعا فى جميع المعارك الفكرية التى خاضها مع أعدائه سواء فى داخل الجزيرة العربية أو خارجها .

ولما استقرت الخلافة للعباسيين اسـتعان هؤلاء فى تثبيت سلطانهم بالفرس ومقاومة خصومهم الذين كانوا يعتمدون على العصبية العربية فى حياتهم السياسية ، فنشأ من هذا الصراع حول السلطة جو فكرى يختلف عن الجو السابق اشتركت فيه العناصر « اللاعربية » وساعدت على ايجاده ، اذ كان من شأنه أن يعينها على تحقيق ما تصبو اليه من تنحيــة العرب عن قيــادة الدفة والاستئثار بالتوجيــه ، حتى كان لها ما أرادت أخيرا فى عهــد البرامكة الذين أدرك الرشيد خطرهم على ملكه فأقصاهم وفتك بهم . ولكن الأمر عاد فالتوى بيد المتوكل وتم الغلبة السياسية على مرافق الدولة للأتراك .

تلك هي الأجواء التي تحولت بها الحكمة العربية القديمة الى فلسفة نظرية . وظهرت في بواكير القرن الثامن للميلاد الفرق الفلسفية من مرجئة وقدرية وجبرية ومعتزلة ، وعاشت تختصم قرابة قرنين من الزمان . ثم ظهر إخوان الصفا في القرن العاشر ، فوضعوا أول موسوعة عربية تاريخ الثقافة العالمية ، ولكن اتجاههم في نوعه كان يستهدف أغراضا سياسية . وتوالى بعد اخوان الصفا عدد من الفلاسفة والمشتغلين بالفلسفة . اشتهر منهم ابن سينا والغزالي في المشرق ، وابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن عربي في الأندلس .

بيد أن الفيلسوف الذي سبق هؤلاء جميعا ، وكان رائد الحركة الفلسفية الجديدة انما كان عربيا صميما ، وهو الكندي الملقب بفيلسوف العرب ، عنه أخذ الفلاسفة ، وبه اقتدوا ، فاشتغلوا مثله بالرياضيات والطب والموسيقى ، وولوا وجوههم شطر الأغريق ، يدرسون آثارهم ويعلقون على آرائهم ، ويرفضون منها ما لايوافق تفكيرهم ، وينقحون ويحذفون ويضيفون . وفي كل ذلك كان استقلالهم الفكري هو الذي يحتل نقطة المركز في دائرة أعمالهم .

وجاء الفارابي — وهو تركي الأصل — فسار على غرار الكندي وبذل من الجهود في الحقول العلمية —وبخاصة الموسيقى والرياضيات — ما جعل أهل الرأي وقادة الفكر يعتبرونه أرسطو الثاني في القرون الوسطى .

غير أن الغلبة ظلت للفكر الديني الاسلامي في أكثر ما أعطى هؤلاء الفلاسفة ، وظلت المثل الأخلاقية العليا العربية هي السائدة وما أصدق « روم لاندو » حين قال : « لو أردنا أن نلخص أهمية الفلسفة الاسلامية في كلمات قليلة لقلنا . ونحن نضرب صفحا عن نقلها حكمة الاغريق وتأويلها وتنسيقها . انها علمت المفكرين المسيحيين كيف يوفقون بين الفلسفة والدين . بيد أن الأهم من ذلك كله هو أن الفلسفة الاسلامية أضاءت منارة وحيدة في ظلمات القرون الوسطى . وهكذا كانت بعبارة أخرى جسرا بين فلسفة الاغريق وفلسفة ما بعد الانبعاث الأوربي التي يرمز اليها بأسماء سبينوزا وباسكال وديكارت (١) » .

وذلك يدل على أن الفلسفة الاسلامية كانت ذات أثر بالغ في الفلسفة الأوروبية .

من كل ماسبق نستطيع أن نقول في غير ما تحفظ أو احتياط ان الحضارة الاسلامية كانت شديدة الأثر في جميع الميادين الثقافية العلمية الأوربية كما رأينا . وحسبنا أن نذكر أن الثقافة الاغريقية قد وصلت الى أوربا في ذلك العصر بوساطة التراجم والمؤلفات العربية ، وأن كثيرا من المؤلفات العلمية العربية قد نقلت الى اللاتينية ، حتى ان بعضها فقد أصله العربي ، ولم يبق منه اليوم سوى الترجمة اللاتينية ، وأن أسماء الفلاسفة العرب لكثرة تداولها على ألسنة الافرنج قد اتخذت صورة افرنجية ؛

Rom Landau : Islam and The Arabs. P. 160.

مثال هذا ابن سينا "Avicenna" وابن رشـــد "Averroes" والرازى "Rhazes"

وكان طلاب العلم والمعرفة يفدون الى الأندلس من أقطـــار أوروبا المختلفــة ، فكثير منهم جاء من انجلترا مثل « أديلارد Adelard of Bath » ، وكثير جاء من ايطاليا (١) .

ونحن اذا أردنا أن نتعـــرف أثر الأدب العـــربى فى الآداب الأوربية وجدنا الأمر شاقا عسيرا ، بخلاف الميـــادين العلمية .. ذلك أن ترجمة الآثار العلمية قد لقيت اقبالا شديدا وتعضيدا كبيرا ، هيهات أن تظفر بمثله الآثار الأدبية . فان عامل المنفعـــة والفائدة العلمية كان قويا فى الأولى ، ضعيفا فى الثانية . هـــذا الى أن مسائل العلم وليدة العقل ، والعقل هو هو عند النـــاس جميعـــا . أما الأدب فهو وليد العاطفة . والعاطفـــة تختلف لدى الناس باختلاف الأجناس والبيئات .

وبعض البـــاحثين قد اضـــطر لأن يفترض أن بعض الآثار الأدبية العربية لابد أن يكون قد ترجم أيضا الى اللاتينية ، أو الى بعض اللغات الشعبية ، ولكن ليس فى أيدينـــا اليوم دليل مادى على هذا . ولذلك فان البـــاحث عن أثر الأدب العربى فى الأدب الافرنجى يتبع فى بحثه طريقة أخرى هى طريقة المقـــابلة والمضاهاة بين الأدبين ، وملاحظة وجوه التشابه التى لايجوز أن تجىء عفوا .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٦ .

فالباحث الذى يرى تشابها دقيقا بين أشــعار « داتنى » وبعض مؤلفات المعرى مضطرا لأن يفترض أن بعض آثار المعرى قد ترجم الى اللاتينية أو الايطالية ، وان لم نعثر على مثل هذه الترجمة بعد .

وكذلك الباحث الذى يرى أن استخدام القافية فى الشعر قد انتقل الى أوربا بوساطة العرب فد تعوزه الأدلة المادية لتحقيق هذه النظرية . ولكنه مضطر لأن يرجح أن للأدب العربى شــأنا كبيرا فى مثل هذا التطور ، لأن الآداب الأوربية القديمة ، وعلى الأخص الأدب اليونانى والأدب اللاتينى الواسع الانتشار ، كانا خالين من القافية . ونحن نلحظ أن القافية تأتى سهلة طيعة فى الشعر العربى ، ولا تأتى بمثل هذه السهولة فى اللغات الافرنجية، فمن المعقول أن يكون ظهورها فى العصور الوسطى الأوربيــة نتيجة المؤثرات الأدبية العربية (١) .

ومما يجعل المؤثرات العربيــة فى الأشعار الغربية صعبــة التحقيق أن أكثرها قد انتقل بوساطة الأغانى والأناشيد والقصص الشعبية التى يتداولها الناس ويتناقلونها شفاها ، ولا يكاد أحد يعنى بتدوينها . ولكن من البديهى أن انتقال الآلات الموســيقية نفسها من الأندلس الى أوربا ، مع ما يصحب هذا من وســائل الارشاد الى كيفية استخدامها والعزف عليها ، يستدعى من غير شك أن تنتقل معها الأغانى والأشعار . وكثير من محترفى الغناء

(١) انظر الاشارة الى المذاهب فى كتاب « تراث الاسلام "Legacy of Islam" الأصل الانجليزى ص ٢٧٣ . وهــذا الكتاب الفه جماعة من العلمــاء تحت اشراف الأستاذ توماس ارنولد ، وقد ترجم الى العربية .

لاندلسيين كانوا ينتقلون من بلد الى بلد ويزورون بلادا غير سلامية فينشدون ويوقعون . وكان الاقبال على غنائهم عظيما فى بلاط الأمراء المسيحيين فى أسبانيا وفى صقلية وايطاليا .

ولابد لنا أن نذكر أن كثيرا من سكان الأندلس الذين عتنقوا الاسلام كانوا يجيدون اللغتين العربية والاسبانية .وكان لادباء منهم وسيلة صادقة لنقل الأدب العربى الى الأطراف لشمالية فى أسبانيا ، ومن ثم الى جنوب فرنسا .

وفى العصور الوسطى ظهرت فى أوربا طائفة جديدة من شعراء المنشدين الذين يجمعون بين التغنى بشعرهم والتوقيع على العود ، يبدو فى أشعارهم الطابع العربى الذى لا يحتمل الشك . وقد أطلق على هؤلاء الشعراء اسم « الطروبادور Troupadaus » : وهى كلمة يظن أنها مشتقة من لفظ الطرب. وقد امتاز هؤلاء الشعراء بنظم أناشيد تدور كلها حول النسيب ، وتبدو فيها الصفات المألوفة فى النسيب العربى ، من هوى عذرى مبرح ، ومن حنين وشوق الى محبوبة ممنعة عزيزة المنال ، ومن وفاء ونبل عاطفة . وقد ظهرت فى هذا العصر قصص كثيرة لايشك الباحثون فى أنها مقتبسة من القصص العربية ، وخاصة أخبار العشاق أمثال عروة بن حزام وعفراء ، أو قيس بن ذريح ولبنى .

كذلك كانت أشعار الطروبادور مشابهة للأناشيد الأندلسية فى نظام وزنها وقوافيها . وقد انتشرت فى أول الأمر فى أسبانيا ، ثم فى جنوب فرنسا وايطاليا ، ولم تزل تنتشر حتى عمت أوربا

الغربية والوسطى . وهذه الأشعار قد أثرت تأثيرا كبيرا فى أشعار الأمم الأوربية ، فهى أساس من أسس الشعر فى الآداب الأوربية الحديثــة .

ولم تكن الأناشيد والأشعار العربية وحدها هى التى أثرت فى آداب العصور الوسـطى الأوربية . بل لقد كان للقصص والخرافات والأمثال والنوادر العربية منثورة و تعبير أيضــ بل لعل أثر النثر فى ذلك العصر أوضح . فقد ظهرت قصص فى الأدب الفرنسى مثلا تحمل طابعا عربيا لاشك فيه . وحسبك أن قصة من أشهرها ، وهى قصة « أوقاسين ونيقوليت Aucassin et Nicolette » ذات صبغة عربيـــة واضحة ، واســـم البطل Aucassin ما هو الا تحريف للاسم العربى : القاسم .

وقد ترجمت فى هــذا العهد مجموعات من القصص منقولة عن اللغة العربية ، أهمها من غير شك كتاب كليلة ودمنة الذى ترجم الى الأسبانية واللاتينية فى القرن الثالث عشر ، وانتقل الى البلاد الأوربية المختلفة ، وكان النواة التى نشأ من حولها أدب قصصى عن الحيوان والطير ، وكان له أثره حتى فى أشــعار لافونتين ناظم الخرافات الشهير . وأشهر قصصــه تعرف باسم "Fables de La Fontaine"

واذا كانت القصص التى ترجمت واضحة الأثر فى الآداب الأوربيـــة الناشئة ، فان هنالك قصصـــا شعبيا كبيرا كان ينتقل بالرواية ، وليس من السهل أن ندرك مدى تأثيره . ومع هــذا

فان من الواضح أن قصص « ديكاميرون » للكاتب الايطالى « بوكاشيو » تشتمل على قصص عربى مما كان متداولا فى عصره.

وأما تأثر شاعر ايطاليا الأكبر « دانتى "Dante" » بالأدب العربى فأمر يكاد يكون مفضوعا به .. ذلك أن الأدب العربى والعلوم العربية كانت تدرس دراسة واسعة فى ايطاليا فى عصره . وليس من المعقول أن يكون هذا الشاعر بمعزل عن هذه التيارات الثقافية القوية التى كانت منتشرة فى زمنه . ولم تكن رسالة الغفران للمعرى هى وحدها المورد الذى استقى منه دانتى ، بل كانت هنالك أحاديث المعراج والاسراء التى وصلت من غير شك مع الفتح الاسلامى الى صقلية .

على أننا لو أمعنا النظر فى رسالة الغفران للمعرى والكوميديا الالهية لدانتى لوجدنا أن أوجه التشابه بينهما ليست سطحية ، بل ان هنالك اتفاقا فى التفاصيل ليس من السهل أن نفترض أنه جاء عفوا .. مثال ذلك أن الشاعر الايطالى يلتقى فى أثناء طوافه فى الجحيم بالشعراء اللاتين الذين ماتوا قبل المسيحية ، كما قابل صاحب المعرى امرأ القيس والنابغة وغيرهما من شعراء الجاهلية ورآهم فى النار . وهنالك غير هذا صور النار وسكانها لم يستطع الباحثون أن يجدوا لها نظيرا فى الأدب المسيحى ، ولها نظائر فى المؤلفات الاسلامية .

... ولما ظهرت الترجمة الأولى لكتاب ألف ليلة وليلة انتشرت فى البلاد الأوربية انتشارا شديدا وأقبل القراء عليها بشغف

